قصة الصحافة فى مصر

احمد حمروش

المستقبل العربى

قصة الصحافة
فى مصـــر

قصة الصحافة في مصر

احمد حمروش



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف الفنان . بهجـــت عثمـــان

الطبعـــة الأولـــى ١٩٨٩

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــــرة

ظهـور الصحافـة فى مصـر

مصر أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم

مقدمة ابن خلدون

لعل قليلا من يعرف اسم الشيخ اسماعيل الخشاب ، ويربط بينه وبين ظهور الصحافة فى مصر ...

واسماعيل الخشاب خريج من خريجى الأزهر ، ولد فى القرن الثامن عشر ، واشتهر بمشاركته الواسعة فى علوم عصره .. قرأ كتب الأدب والتاريخ والتصوف ، واعتبر من أفحل الشعراء وأبلغ الكتاب .

ولم يكن فى مصر خلال هذه الفترة من دار للعلم إلا الأزهر الشريف .. وعندما دخلت الحملة الفرنسية مصر عام ١٧٩٨ ، أقامت ديوانا للقضايا يرفع إليه ما يقع بين المصريين من أحداث ... يتم نشرها بعد ذلك فى صحيفة (التنبيه) .

وكانت (التنبيه) هى أول صحيفة عربية تصدر فى الوطن العربى ... وكان الشيخ اسماعيل الخشاب الذى استعان به الفرنسيون للاشراف على الصحيفة ، أول صحفى عربى ، عمل بها ثلاث سنين حتى خرجت الحملة الفرنسية وتوقفت صحيفة (التنبيه) ، وعاد اسماعيل الخشاب للعمل فى المحكمة الكبرى إلى أن مات عام ١٨١٥ بعد أن ترك ديوانا صغيرا من الشعر جمع بعد وفاته .

قبل الحملة الفرنسية فى عهد المماليك لم تكن هناك صحافة بالمعنى

المتعارف عليه اليوم ، رغم أن المطبعة قد اخترعت فى أواسط القرن الخامس عشر عام ١٤٣٦ على يد جوتنبرج الألمانى ... وتطورت الصحافة بتطور الطباعة حتى كتابة هذه السطور .

ولكن الصحافة بمعنى التعريف والنشر سبقت الطباعة ... وعرفت مع بداية التاريخ حيث قامت النقوش الحجرية بهذا الدور فى مصر والصين وعند العرب بعد ذلك ... والانسان بطبيعته ميال للمعرفة وحب الاستطلاع ... وتسجيل خواطره وأخباره ... وأوراق البردى المصرية القديمة حملت الينا أخبار الحياة قبل ٤٠٠٠ سنة من الميلاد ... وحجر رشيد كان مفتاحا لفك رموز اللغة الهيروغلوفية بما كان يحمله من أخبار بلغات ثلاث .

وما كانت قصص الأنبياء والشعوب القديمة التى وردت فى التوراه والانجيل والقرآن لتصل الينا لولا تسجيل الانسان لها بطريقة أو أخرى ... ولعب خط اليد دورا كبيرا طوال هذه القرون من تاريخ الانسانية قبل اختراع المطبعة ... ومازالت الكتب المنسوخة بخط اليد تراثا تعتز به البشرية .

ولكن المماليك والدولة العثمانية فى مصر لم يهتموا بالمطبعة كوسيلة لإصدار الصحف ولم يحفلوا بها ... وانكبوا على حياتهم الخاصة بعيدا عن حضارة العالم التى أشرقت بظهور الصحافة مع بداية القرن السادس عشر فى كل من انجلترا وفرنسا والمانيا وهولندا وغيرها من دول أوربا .

ولذا كان دخول المطبعة فى خدمة الصحافة مع الحملة الفرنسية حدثا حضاريا ... وكان ظهور (التنبيه) نقلة فى عالم المعرفة ... وكان تكليف الشيخ اسماعيل الخشاب بالاشراف عليها بداية لتاريخ الصحافة العربية ... ليس فى مصر وحدها ... بل فى سائر أرجاء الوطن العربى الذى كان خاضعا للسيطرة العثمانية ..

كانت هناك مطابع تطبع الكتب ما عدا كتب التفسير والحديث والفقه ، لأن بعض رجال الدين أفتوا بأنها رجس من عمل الشيطان ... وهكذا كان الأمر أيضا بالنسبة للصحافة فلم يكن مسموحا بها ..

ولا نريد أن نبحث طويلا فى تاريخ الصحافة خارج الوطن العربى ... ولكننا نشير فقط الى صراع كان يدور بين الصحفيين والأسر الحاكمة وخاصة فى بريطانيا على عهد ملوك آل ستيوارت ... ويذكر أنه عندما أصدر جون والتر الثانى جريدة (التايمس) عام ١٧٨٥ ان صاحبها اضطر أمام ضغط الحكومة الى توزيع الصحيفة على سفنه الخاصة .

وتطورت الصحافة مع تطور الصناعة وخاصة بعد الثورة الفرنسية واعلان حقوق الانسان فى نهاية القرن الثامن عشر ... ولكن نابليون حد من حرية الصحافة قائلا (ينبغى على الحاكم أن يجعل الصحافة فى خدمته) ... ولم تعد تظهر فى فرنسا سوى صحيفة واحدة هى (لومونيتور) تنطق بلسان نابليون ... وكذلك كانت صحيفة (التنبيه) التى بادر باصدارها أثناء حملته على مصر .

ظهرت (التنبيه) عام ١٨٠٠ وعهد نابليون بالاشراف عليها الى أحد أعوانه واسمه (فوزييه) لاذاعة المهم فى ديوان القضايا ونشر أخبار مصر واذاعة أوامر الحكومة الجديدة بين الأهلين ... وهو الذى كلف الشيخ اسماعيل الخشاب بتحريرها ... وأصدرت الحملة الفرنسية صحيفتين أخريين باللغة الفرنسية هما (**Le courrier d'Egypte**) (بريد مصر) (**Le decade Egyptienne**) (العشرية المصرية) .

وتوقفت الصحف الثلاث بخروج الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١ .

ولم تصدر فى مصر صحيفة أخرى الى عام ١٨٢٧ عندما أصدر محمد على نشرة شهرية باسم (جورنال الخديوى) ، ما لبثت أن تحولت عام ١٨٢٨ الى

جريدة (الوقائع المصرية) التى جعلها لسان حال الحكومة .

ولكن هذه الفترة ـ ٢٦ عاما ـ لم يسدل فيها الظلام ... ولم تضع من تاريخ مصر بلا تسجيل ... فقد كان هناك الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى رزق به والده الشيخ حسن الجبرتى بعد خمسة وثلاثين مولودا من الذكور والاناث ماتوا جميعا وهم دون سن البلوغ . وكان عالما جليلا غرس فى ابنه حب الدرس والمعرفة ..

انعقدت الصلة بين الشيخ عبد الرحمن الجبرتى والشيخ اسماعيل الخشاب ومعهما الشيخ حسن العطار الذى اشتهر فيما بعد وأصبح شيخا للأزهر ... حيث جمعهم تراث الدين مع حب الأدب .

وكان عبد الرحمن الجبرتى قد ترك القاهرة عند دخول الحملة الفرنسية وذهب إلى أبيار مركز كفر الزيات ، ثم عاد منها ليجد أن القاهرة قد تغيرت ، وانبهر بما رأى من تغيرات .

ويقول فى ذلك بعد أن زار خزائن كتبهم ومصاحفهم وشهد تجاربهم واطلع على تصاويرهم ورسومهم وآلاتهم ... ليقول :

« واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ... ولقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعونى على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظرا الى السماء كالمرهب للخليقة ، وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف . وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين ، وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس ...»

ويلاحظ تسجيل الشيخ الجبرتى لذلك رغم أن الدين الاسلامى يحرم تصوير النبى والخلفاء الراشدين ... الأمر الذى يظهر نوعا من التفتح وحرصا على تسجيل كل ما تقع عينه عليه .. تماما كما يلتزم بذلك الصحفى .

وتنوعت اهتمامات الأصدقاء الثلاثة ... الخشاب والجبرتى والعطار .. فقد اقترب الشيخ اسماعيل الخشاب من الفرنسيين وأشرف على (التنبيه) كما ذكرنا .. أما الشيخ حسن العطار فكان كثير الجد والتفكير فى كل ما يشهد من أفعال هؤلاء العلماء الأجانب ، ويقيس ما عندهم بما عند علماء مصر فيرى البون شاسعا والفرق عظيما .

أما الجبرتى فكان متميزا عمن تقدمه من الكتاب المؤرخين بعنايته بالأمور الجليلة والتافهة ... لم يدع شيئا نُمِىَ الى علمه مهما عظم أو صغر الا دَوَّنه فى دقة مدهشة ... كان دقيق التحرى ، أمينا فى النقل ، نزيها فى الرواية ... يكتب بأسلوب مرسل بسيط اذا سرد الأحداث اليومية ، مسجوعا حين يصف المعارك والفتن ... وفى اختصار كان مؤرخا وصحفيا معا ... مؤرخا بما سجله فى الكتب .. وصحفيا بما كان يمكن أن ينشر لو كانت هناك صحيفة عربية ..

ولعل ما ننقله عنه فى وصف حياة الفرنسيين أثناء الحملة ما يظهر موهبته الصحفية التى لم تتح لها الظروف أن تتألق على صفحات الصحف ، وانما ظهرت فقط على صفحات الكتب .

قال عبد الرحمن الجبرتى :

لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة

ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن ...

وطالما نعى الجبرتى على الفرنسيين : « شدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها (أى حذائها) ، ومما كان يزيد فى النكاية أن ضباط الأخطاط كانوا يتزوجون بالمسلمات من بنات الأعيان ، فتقبل المسلمات الزواج : « رغبة فى سلطانهم ونوالهم فيظهر (الزوج) حالة العقد الاسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها . وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثلما يمر الحاكم » . على أن هذه الحال لم تقتصر على النساء البيض بل عدتهن الى الجوارى السود فانهن : « لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن اليهم أفواجا فرادى وأزواجا فنططن الحيطان ، وتسلقن اليهم من الطيقان » .

هكذا يمكن القول ان أحداث مصر أثناء الحملة الفرنسية وبعدها قد سجلت بأسلوب صحفى ، وإن كانت الصحيفة قد احتجبت ... وعاد الأمر كما كان فى الماضى ..

بذور الفن الصحفى كانت تنمو فى كتب التراجم والسير واليوميات ووصف الرحلات وأحوال المعيشة عند الشعوب ، وتسجيل الوقائع التاريخية والأحداث وخفايا القصور وغيرها .

ولذا فاننا اذا كنا نحتسب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى عداد الصحفيين العرب الأوائل ، فذلك لأن كتابه التاريخى المسمى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) كان بمثابة صحيفة يومية ، لأنه دوّن فيه الأحداث يوما بيوم ، وهو بذلك يعتبر أول عربى مارس الصحافة ممارسة فعلية قبل نشوء الصحافة الحديثة

بربع قرن تقريبا .

ومما يدل على اهتمامه المبكر بالصحافة ما قاله عن زميله وصديقه الشيخ اسماعيل الخشاب عندما عين فى جريدة (التنبيه) .

(ان الفرنساوية عينوه فى كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه كل يوم ، لأن القوم كان لهم مزيد من اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم ، ثم يجمعون المتفرق فى ملخص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخا عديدة يوزعونها فى جميع الجيش حتى لمن يكون منهم فى غير المصر من قرى الأرياف ، فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم ، فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكر كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس من أمر أو نهى أو خطاب أو جواب أو خطأ أو صواب ، وقرروا له فى كل شهر سبعة آلاف فرنك نصف فضة ، فلم يزل متقيدا فى تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو حتى ارتحلوا من الاقاليم) .

عاد الشيخ اسماعيل الخشاب الى العمل بالمحكمة ، واستمر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى يواصل هوايته ويعبر عن موهبته حتى وافاه القدر عام ١٨٢٥ قبل أن تظهر فى مصر صحافة .. فاشتهر مؤرخا عظيما ولم يتح له الزمن أن يكون صحفيا عظيما .

لم يهتم محمد على بالصحافة فور توليه الحكم بارادة الشعب المصرى عام ١٨٠٥ ، وانما اهتم بها بعد ثباته على العرش بثلاثة وعشرين عاما ... كان مهتما خلال هذه الفترة بمطاردة المماليك سواء فى مذبحة القلعة ١١ مارس ١٨١١ ، أو بعد هروبهم الى الصعيد ... وكان منشغلا بغزواته وفتوحاته .

وكان الاهتمام العسكرى لمحمد على سببا فى تفتح مصر على ميادين الصناعة والعلم والثقافة ، خاصة بعد أن اتخذ قرارا ثوريا بتجنيد الفلاحين المصريين فى الجيش النظامى لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، وما صحب ذلك من

ضرورة نشر التعليم فى الجيش والغاء النظم والأسلحة التقليدية مثل السيوف والدروع .

وقد أقام معسكرا لتدريب الجنود فى أسوان تحت اشراف مدربين فرنسيين ، كان أبرزهم الضابط الفرنسى (جوزيف انتلم سيف) الذى حضر الى مصر عام ١٨١٩ ، وعرف فيما بعد باسم (سليمان باشا الفرنساوى) بعد أن أسلم وتزوج وأنجب فى مصر .

وكانت نظرة محمد على الثاقبة فى تحديث الجيش حافزا له على ارسال البعثات الى فرنسا ... حيث انتقلت الحضارة والمعارف عبر هؤلاء المبعوثين الذين أقاموا جسرا من المعرفة بين القاهرة وباريس .

الصحافة فى عهد محمد على اقترنت بالظروف التى عاشتها مصر والاهتمامات التى جذبت فكره وطاقته ... فقد أولى الجيش والصناعة كل ما يملك من جهد ... ولكنه ـ رغم تأخر ذلك ـ اهتم بالصحافة أيضا ... بل ان ظهور الصحافة فى مصر سبق ترسانة الاسكندرية التى شيدت عام ١٨٢٩ لتنزل الى البحر أول سفينة ذات مائة مدفع عام ١٨٣١ ... وسبقت أيضا بناء القناطر الخيرية التى بدىء فيها مع ثلاثينيات القرن التاسع عشر .

عادت الصحافة الى مصر فى صورة جديدة لا يشرف عليها الفرنسيون ، وانما يشرف عليها المصريون .

ظهرت (الوقائع المصرية) بشكل غير منتظم وفى مواعيد غير محددة .

فى البداية ظهرت باللغة التركية ، ثم باللغتين التركية والعربية ، واستقرت لتصبح عربية خالصة .

وهكذا كانت الوقائع المصرية ، ثانى صحيفة تصدر فى مصر باللغة العربية ... ولكنها كانت أول صحيفة مصرية يحررها المصريون .

الصحافة المصرية ... فى الحدود الرسمية

(ان محمد على كان الشخص الوحيد
الذى كان فى قدرته تحويل تركيا من
العمامة المفتخرة الى رأس حقيقى)
كارل ماركس

أصبح فى مصر صحافة مواكبة للعصر عندما تحول (جورنال الخديوى) الذى صدر عام ١٨٢٧ الى (الوقائع المصرية) عام ١٩٢٨ .

وأصحبت كلمة (الوقائع) تطلق تعبيرا عن الصحيفة الى زمن طويل ... لم يكن فيه الفرق واضحا بين الجرنال والجريدة والمجلة ... فالجرنال ذات أصل فرنسى ، والمجلة مشتقة من مادة جلا جلاء ، أى ظهر ووضع وفيها جلية الأمر ، أى ما ظهر من حقيقته ، أى الخبر اليقين ، والجريدة تعود الى عادة عربية كانت تقضى بكتابة بعض العبارات والآيات القرآنية على جريد النخل عند دفن الميت ووضعها فى قبره ، ومن هنا أتت التسمية المجازية بمعنى أن الجريدة هى ما يكتب عليها .

كلمة صحافة وصحفى لم تعرف وتثبت مع صدور الوقائع ، وانما تحدد ذلك مع تطور الصناعة الصحفية خلال القرن التاسع عشر .

وعندما ظهرت (الوقائع المصرية) لم تكن تنشر أوامر وقرارات الحكومة وأحكامها فقط ... وانما كانت تنشر الحوادث والأخبار الهامة ، وتعالج الموضوعات الأدبية والاجتماعية بقدر ما كانت تسمح به ظروف العصر .. وما كان يسمح به الحاكم .

أول من تولى الاشراف على الوقائع المصرية كان الشيخ حسن العطار صديق كل من الشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، والذى أصبح شيخا للأزهر فيما بعد ، كما ذكرنا .

والشيخ حسن العطار كان ذا شخصية بارزة ، يتأمل أحوال المصريين ، ويتطلع الى تغييرها نحو الأفضل ، بما لمسه من تطور العلوم والفنون عند الفرنسيين ... وقد تتلمذ عليه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، وهو الذى زكاه ورشحه للذهاب الى بعثته العلمية فى فرنسا عندما كان إماماً فى الجيش ، يحمل رتبة عسكرية هى رتبة اليوزباشى .

ولاشك ان الشيخ حسن العطار كان مقدرا لأسلوب وكتابات صديقه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وتمنى لتلميذه أن يكون نظيرا له .

سافر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الى باريس قبل أن تصدر (الوقائع المصرية) فى القاهرة ، وعاد منها عام ١٨٣١ .

وكانت الظروف التى صدرت فيها (الوقائع المصرية) تفرض على المحررين فهما وأسلوبا خاصا ، فقد تدهورت لغة الكتابة ـ كما يقول الأستاذ أديب مروة ـ فى كتابه عن (الصحافة العربية نشأتها وتطورها) خلال عهد العثمانيين تدهورا مريعا بلغ حد الاسفاف والركاكة .

صدرت (الوقائع المصرية) فى وقت لم يكن فيه الأدب مزدهرا ، وأسلوب الكتابة يجنح فى وضوح الى السجع ... واللغة التركية تهيمن على السلطة والدواوين .

ويظهر ذلك واضحا فى افتتاحية العدد الأول من (الوقائع المصرية) :

(الحمد لله بارى الأمم والسلام على سيد العرب والعجم ، أما بعد فان تحرير الأمور الواقعة مع اجتماع بنى آدم ، المتدبجين فى صحيفة هذا العالم ، ومن ائتلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم التى حصلت من احتياج بعضهم بعضا هى نتيجة الانتباه والتبصر بالقدير والاتقان ، واظهار الغيرة العمومية ، وسبب فعال منه يطلعون على كيفية الحال والزمان) .

وجاء فى صفحات أخرى وصف أحد الكتّاب لجيش من جيوش محمد على قال :

(وقد هاجت منهم الضراغم ، وطارت القشاعم ، وثارت الغماغم ، وماجت الخضارم الخ ....) .

حسنا .. قد لا تكون هذه الكلمات مفهومة لك ... ولكنها فى الغالب ذات أصول صحيحة .. وانما نقدمها كنوع من الأسلوب السائد فى هذه الفترة التى كانت تكتسح فيه الأمية أبناء الشعب ، وتفرض عليهم التركية لغة للحكام .

ومحمد على لم يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة باللغة العربية فى دراسة صحيحة إلا بعد أن بلغ الخامسة والأربعين من العمر .

حاول الشيخ حسن العطار بأدبه الرفيع وجديته أن يؤثر فى (الوقائع المصرية) ولكن صاحب الفضل الأوضح والأكبر فى هذا المضمار كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى أوكل اليه الإشراف على (الوقائع المصرية) بعد أن أصبح الشيخ حسن العطار شيخا للأزهر .

والشيخ رفاعة رافع الطهطاوى علم من أعلام الثقافة فى مصر ، حمل اليها من باريس كل ما وقعت عليه عيناه من رؤية أو فكر ... فأصدر كتابه (تخليص الابريز فى تلخيص باريز) عام ١٨٣٤ ، ثم (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) عام ١٨٦٩ ، وقد قام بترجمة دستور فرنسا الذى كان معمولا به عندما كان فى باريس ، وهو دستور لويس الثامن عشر فى عام ١٨١٤ متتبعا ما لحقه من تعديلات .

وعن طريق الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى عرف المثقفون المصريون نظم الحكم الغربية ، وأطلوا على حضارة العصر ، وتبينوا معالم الديموقراطية .

وقد تولى مسئولية الاشراف على (الوقائع المصرية) وهو مؤمن بما كتبه تعليقا على المادة الثامنة من الدستور الفرنسى الخاصة بحرية النشر قائلا (انها تقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعمله وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ... لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم) .

وعن طريق (الوقائع المصرية) عرف الشعب المصرى الصحافة العصرية وساعد الطهطاوى على تحويلها من جريدة رسمية جامدة الى صحيفة تنشر الأبحاث والمجادلات والمقالات المترجمة .

وانحسرت على صفحات الوقائع روح الهيمنة التركية وبدأت تظهر الروح المصرية التى كان يتبناها ويدفعها محمد على ... والتى عبر عنها ابنه القائد ابراهيم الكبير بقوله من أنه سوف يفتح البلاد حتى يصل الى حدود لا يتكلم أهلها العربية .

كانت (الوقائع المصرية) تظهر فى وقت غابت فيه وسائل الاتصال السريع .. فلم تكن هناك طرق ممهدة ولا سكك حديدية ولا عربات ولا اتصالات تليفونية ... وانعكس ذلك على الصحيفة ، فأصبح عدد القراء محدودا فى وقت لم يكن فيه التعليم منتشرا ... ولذا اقتصر التوزيع على المثقفين من أبناء الأزهر الشريف .

ورغم أن رفاعة الطهطاوى كان يدين بعلمه الى البعثة التى أرسله فيها محمد على إلى فرنسا ، الا انه كان ليبراليا ، يعبر عن رأيه فى الملوك بقوله (ان للملوك فى ممالكهم حقوقاً تسمى بالمزايا ، وعليهم واجبات فى حق الرعايا) ... ويفسر ذلك بقوله (ان الله سبحانه وتعالى قد اختاره لرعاية الرعية وجعله ملكا عليهم ، لا مالكا لهم) .

ولكن هذا لا يعنى ان الطهطاوى كان ثوريا يدعو الى الثورة ، ولكنه كان مصريا مستنيرا ، نقل الى المصريين أفكار العصر المتحررة .

ولكن (الوقائع المصرية) ما لبثت ان تعرضت لما تعرض له المجتمع فى مصر بعد وفاة محمد على الذى قهره تكالب الغرب عليه واجبارهم له على التوقيع على معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ... التى صدر بعدها مرسوم سلطانى يحتفظ فيه محمد على ضمن ممتلكاته الوراثية بمصر والسودان فقط مع اعادة جميع الأرض الباقية ، وإنقاص عدد الجيش ليصبح ١٨,٠٠٠ فقط مع حرمان محمد على من حق تعيين اللواءات فى جيشه أو بناء السفن الحربية ، مع اعترافه بأنه تابع للسلطان. يتعهد بدفع جزية كبيرة الى خزينته .

وهكذا تحالفت القوى البرجوازية الاستعمارية فى أوربا وخاصة الانجليزية لضرب محمد على الذى حقق انجازات هائلة فى ميدان الصناعة والزراعة والثقافة والحرب الحديثة .

حدث ارتداد هائل فى حالة مصر ... ووضعت اتفاقية لندن نهاية لحكم عصرى متحضر امتد ما يقرب من أربعين عاما ، وكتب عنه كارل ماركس قائلا (ان محمد على كان الشخص الوحيد الذى كان فى قدرته تحويل تركيا من العمامة المفتخرة الى رأس حقيقى) .

كان الصدمة شديدة على محمد على ، فتنازل عن شئون الحكم لابنه ابراهيم وهو فى الواحدة والسبعين من عمره .. ولكن ابراهيم توفى بعد ثلاثة أشهر ، وتولى عباس باشا الحكم فى ٢٤ ديسمبر ١٨٤٨ ومحمد على مازال على قيد الحياة .

وكان عباس باشا ضعيفا ومستسلما ورجعيا .. فخفض عدد الجيش الى ٥٠٠٠ جندى ، وأغلق المصانع والترسانة ، وأوقف العمل فى القناطر الخيرية ، وأغلق المدارس التى كانت تخرج ضباط الصف .

وانعكس ذلك على (الوقائع المصرية) فأصبحت تصدر على فترات متباعدة ... وكانت حتى هذه اللحظة مازالت غير منتظمة فى مواعيد الصدور .

ووجه هنا وللثقافة ضربة قاصمة عندما قرر نفى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الى السودان ... ويمكن القول بأن هذه الفترة كانت من أشد فترات مصر قتامة وتعاسة ... فقد انحسر كل شيء طيب فى مصر ... وعاد التخلف الصناعى والثقافى والصحفى ينشب أظفاره فى المجتمع الذى بدأ الخديوى عباس يسلم قياده الى البريطانيين تدريجيا .

ولم يكن سهلا على عباس أن يرجع بمصر التى تألقت باصلاحات محمد على الى الأنظمة التركية القديمة ... حيث اتضحت القوى الانتاجية والعلاقات الرأسمالية والأفكار المضيئة التى حملتها (الوقائع المصرية) وما صدر خلال حكمه من كتب حديثة .

ولذا كانت نهاية الخديوى عباس القتل بوساطة حرسه فى قصره ببنها والاعلان فى بيان رسمى صدر فى يوليو ١٨٥٤ بأنه مات بالسكتة القلبية .

وأهلّ النصف الثانى من القرن التاسع عشر على واقع جديد مع تولى سعيد باشا الحكم ، فقد أصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى مصر ... ونجح فى الحصول على موافقة الباب العالى لزيادة عدد الجيش الى ٣٠ ألف جندى بدلا من ١٨ ألفا كما نصت معاهدة لندن ، وأعاد فتح مدارس الجيش التى أغلقها عباس عندما هبط بعدد الجنود الى ٥ آلاف كما ذكرنا .

التعليم يشرق من جديد على مصر ... والصحافة أيضا .

ويعود الى القاهرة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بعد سنوات من المنفى ... ولكنه لم يعد مشرفا على (الوقائع المصرية) .

ويقول أحمد عرابى فى مذكراته تدليلا على رؤية سعيد المختلفة عن رؤية سلفه عباس ، ان الخديو سعيد أهداه تاريخ نابليون بالعربية طبع بيروت وهو بادى الغيظ على أن تمكن الفرنسيون من التغلب على البلاد المصرية .

وكسر الخديوى سعيد حاجزا كان يقف سدا أمام تقدم المصريين عندما سمح بترقية صف الضباط والضباط المصريين أبناء الفلاحين الى رتب كبار الضباط .

وقد وصل فى عهده ضابطان مصريان الى رتبة البكباشى ـ المقدم ـ هما أحمد عرابى وعبد العال حلمى .

ووصل الأقباط كذلك الى رتب الضباط فى الجيش لأول مرة .

ورغم ذلك فان الصحافة ظلت حتى نهاية عهد سعيد منطوية على نفسها محصورة فى الصحيفة الرسمية (الوقائع المصرية) .

لم تظهر صحف جديدة ... وان كانت (الوقائع المصرية) قد تطورت على عهد من تولى الاشراف عليها بعد ذلك مثل أحمد فارس الشدياق اللبنانى الذى هاجر الى مصر واشتهر كتابه الساخر (الساق على الساق) ... ولكنها لم تتطور الى حد الانتظام فى مواعيد الصدور .

وبذا يمكن القول ان عهد سعيد كان عودة الى ما سبق ان بذره محمد على ، ونهاية لما داسه عباس من أعمال وقيم .

ولكنه الى ان مات وتولى الحكم الخديوى اسماعيل لم تظهر صحيفة مصرية شعبية وبقيت الصحافة مقيدة فى اطار السلطة ... وان كان التعليم قد انتشر الى الحد الذى أصبح فيه ممكنا للصحافة أن تجد سوقا للتوزيع .

ويكفى سعيد الذى مات عام ١٨٦٣ وتولى الحكم من بعده الخديوى إسماعيل ، أنه أحب مصر وفتح الباب أمام أبنائها للتعليم والترقى فى الجيش ... وأنه جعل صدور (الوقائع المصرية) أكثر انتظاما مما كانت فى عهد سلفه ... ولكن عهده خلا من ظهور صحافة شعبية .

بداية الصحافة الشعبية

(ان الخديوى اسماعيل ارتفع بانشاء
« مجلس شورى النواب » على رأس
المتحررين الآن)

الوقائع ــ الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى

فتح الخديوى اسماعيل صفحة جديدة فى حياة مصر ... وفى حياة الصحافة أيضا .

كان يعمل من أجل أن تصبح مصر قطعة من أوربا على حد قوله .. فيطوى صفحة الردة التى عاشها الشعب بعد عهد محمد على .. ويضىء المجتمع بالتعليم والثقافة .

فتح المدارس للبنين والبنات .. وكان هذا حدثا ثوريا ... فلم تكن الفرصة متاحة لتعليم البنات ... وكان نظام التعليم قاصرا على الكتاتيب والأزهر .

وبدأت تظهر طبقة مثقفة جديدة متأثرة بالأفكار الأوربية ... تفرض نفسها على المجتمع فى مواجهة خريجى الأزهر الذين جمدت نظرتهم ، وانعزلت عن متابعة التطور العلمى .

وقد وصف الشيخ رشيد رضا الجامع الأزهر فى ذلك الوقت (من صحنه الى مقاصره الى أروقته الى مغاطسه وميضاته بأنها أصبحت مجمعات أوساخ ومهب روائح عفنه وبؤرة أمراض معدية ، فضلا عما لحق بأهله من الفساد الخلقى والمخازى كأكل السحت من الرشوة على الأحكام والفتاوى والمحاباة فى امتحان الشهادة العالمية ، والذلة والمهانة أمام كبار رجال الدنيا ... وكان

مستوى الطلبة الأزهريين قد وصل الى منتهى الانحطاط العلمى ... وذلك كما ذكر الدكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه (الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو) .

ولذا كان الاتجاه الى فتح المدارس الحديثة وتعليم البنات ثورة حقيقية فى المجتمع الذى كان قد ارتد الى ما يشبه الحالة التى سادت فى مصر خلال الخلافة العثمانية عندما حرمت مصر من الانفتاح على الحضارة الأوربية قبل الحملة الفرنسية .

بادر الخديو اسماعيل الى اتخاذ إجراءات حاسمة فى ميدان الصحافة التى كانت قاصرة حتى ذلك الوقت على صحيفة (الوقائع المصرية) التى كانت تصدر بصفة غير منتظمة .

بدأ الخديوى اسماعيل فى اصلاح الوقائع ـ صحيفة الدولة الرسمية ـ حتى رفعها الى مستوى الصحف (المعتبرة) كما كان يقول ... فانتظمت فى مواعيد صدورها ... وأصدر صحفا حكومية أخرى فى مجالات شتى ... يعسوب الطب ، والجريدة العسكرية المصرية ، وجريدة اركان حرب الجيش المصرى ، ثم روضة المدارس للتلاميذ والمعلمين .

ولم يقف التطور الصحفى عند حدود سلطة الدولة ... فالصحافة الأوربية كانت شعبية ، يصدرها أفراد يعبرون عن أراء طبقتهم فى حدود ما تسمح به ديموقراطية الدول المختلفة .

وظهرت فى تاريخ مصر الحديث الصحافة الشعبية لأول مرة ... البعض منها كان بتشجيع من الخديوى اسماعيل ورعايته الأدبية والمادية مثل (وادى النيل) التى كانت تصدر مرتين فى الأسبوع ، (وروضة الأخبار) الأسبوعية .

وأراد الخديوى إسماعيل اثبات انه من أنصار الحرية فسمح لابراهيم المويلحى وعثمان جلال من المتعلمين المتأثرين بديموقراطية الغرب وحرياته باصدار صحيفة (نزهة الأخبار) ، التى ظهر فى عددها الأول مقالات ودراسات تفيض وطنية وحديثا عن الحرية والدستور .

وسكت الخديوى عن العدد الأول لأن أسرة المويلحى عاشت فى كنف محمد على وتشجيع الأسرة الحاكمة ... فكانت تحتكر صناعة الحرير ، وكان هناك أمر ألا تدخل الى بيوت حريم الأمراء سيدة لا ترتدى حرير المويلحى تأييدا لهذه الأسرة وتشجيعا لتجارتها !

ومع ذلك فان هذه العلاقة الوطيدة لم تشفع لها ، اذ أنه ما أن صدر العدد الثانى متعرضا بالنقد لشئون الجيش ، مطالبا بتمصيره وتسليم قيادته الى المصريين ، حتى بادر الخديوى اسماعيل بغلق الصحيفة .

وكان الخديوى اسماعيل رغم انفتاحه على أوربا متناقضا فى تصرفاته ... فلم يكن يحمل للعسكريين المصريين ما كان يحمله لهم الخديوى سعيد ... فأحمد عرابى الذى وصل الى رتبة البكباشى وكان ياورا للخديوى سعيد عام ١٨٦٠ لم يحصل على ترقية طوال ١٩ عاما فى عهد الخديوى اسماعيل ، الذى كان يؤثر ترقية الضباط الألبان والشراكسة الى المناصب القيادية ، وإبعاد الضباط المصريين الى المناصب الثانوية ، مما أحدث خلافا فى صفوف الجيش بين العناصر الوطنية الديموقراطية من الضباط الذى كانوا يسمون أنفسهم (الفلاحين) والآخرين الذين لقبوا باسم (الشراكسة) ، وزادت حدة التناقضات بتوزيعه ٥٠٠ فدان لكل لواء ، ٢٠٠ فدان لكل أميرالاى ، ١٥٠ لكل قائمقام ... ومعنى هذا حرمان المصريين من الهبات ... هذا فى وقت أمكن للخديوى اسماعيل فيه أن يصل بعدد الجيش الى ٨٠,٠٠٠ ألف جندى ، وان يرسل ١٥ فرقة عسكرية الى مولدافيا لمعاونة الجيش العثمانى فى القضاء على ثورتها .

وكما حضر الضباط الفرنسيون بعد هزيمة نابليون للعمل فى الجيش المصرى ، حضر أيضا ٥٤ ضابطا أمريكيا بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية ، وصل أحدهم ـ الجنرال ستون باشا ـ الى منصب رئيس هيئة أركان الحرب من ١٨٧٠ الى ١٨٨٢ .

هذا التناقض لم يقابل من المثقفين المصريين بالرضا ... فعبروا عن آرائهم فى (نزهة الأخبار) التى أغلقت بعد عددها الثانى ... وشكلوا جمعية سرية من الضباط الوطنيين تحمل اسم (مصر الفتاة) ويرأسها على الروبى والتى انضم اليها أحمد عرابى فى ذلك الوقت .

نخلص من ذلك الى أن الصحافة بادرت بالتعبير عن الارادة الوطنية ... الأمر الذى اعترض عليه الخذيوى ، فأثبت أن الديموقراطية وحرية الصحافة لا تمنح بل تؤخذ غلابا .

ويذكر للخديوى اسماعيل اهتماماته الثقافية العظيمة .. فهو الذى بنى الأوبرا أول دار مكتملة للتمثيل خارج أوربا ... وفتح طريق الأهرام احتراما للأثر العظيم .. وأسس دار الكتب .. وشجع التمثيل .

ولكن الثقافة عنده مثل الصحافة لم تكن تنبع من قناعة وايمان ، وإنما كانت تنبع من رغبة شديدة فى التقليد ....

ولذا أحضر الى القاهرة الفرق المسرحية الأجنبية مثل الكوميدى فرانسيز والأوبرا الايطالية .

وعندما فكر يعقوب صنوع ـ وهو فنان مصرى ولد من أم يهودية وهبته للاسلام درس التوراه والانجيل والقرآن ـ فى تأسيس مسرح للوطنيين تعرض على خشبته تمثيليات عربية وافق الخديوى اسماعيل ، لأن ذلك كان حدثا جديدا ، فالى ذلك الحين لم يكن أحد قد قدم مسرحيات عربية أمام متفرجين .

كان يعقوب صنوع قد ذهب فى بعثة الى ايطاليا حيث تعرف على فنون العالم ... وعرف أن المسرح أداة فعالة فى نهضة الشعوب .

ويروى يعقوب صنوع قصة ميلاد مسرحه فيقول :

(ألفت فودفيل قصيرة تتخللها ألحان ملحنة تلحينا شعبيا ، ومثلت أمام باشوات وبكوات البلاط الخديوى فضحكوا لها من أعماق قلوبهم) .

وانتقل العرض المسرحى بعد ذلك الى حديقة الأزبكية حيث حضر الحفلة الأولى رجال البلاط والوزراء ، وأكثر من ثلاثة آلاف مشاهد أوربى مقيم أو مصرى ... وبعد مرور أربعة أشهر على قيام هذا المسرح دعاه الخديوى اسماعيل وفرقته الى التمثيل على مسرحه الخاص فى قصر النيل .. وبعد ان مثَّل أمامه مسرحيتين قال له أمام الوزراء وكبار رجال القصر (نحن ندين لك بانشاء مسرحنا القومى ، فان كوميدياتك وغنائياتك ومآسيك قد عرفت الشعب على الفن المسرحى ، فاذهب فانك (موليير مصر) وسيبقى أسمك كذلك إلى الأبد) .

وهكذا يمكن القول ان مصر كانت تنتقل فى عهد الخديوى اسماعيل الى حالة جديدة عامرة بالتفتح على أوربا ، والنهل من ثقافتها ، ومسايرة مظاهر تقدمها .

ولكن الحكم الفردى المطلق لم يكن يسمح بأن تنمو الزهور وتتفتح ... وكما أغلق الخديوى صحيفة (نزهة الأخبار) بعد عددها الثانى ... أغلق مسرح يعقوب صنوع عندما قدم مسرحية (الوطن والحرية) التى رأى فيها الخديوى اسماعيل تعريضا به وبنظام حكمه وحاشيته ، فأمر باغلاق المسرح نهائيا ، ناسيا اللقب الذى أطلقه عليه (موليير مصر) ... وضاعت بذلك فرصة تطور المسرح المصرى خلال رؤيته المسرحية المتألقة والناضجة معا .

ولم يكن إسدال المسرح على يعقوب صنوع نهاية له ، وهو الذى كان يجيد عدة لغات : الفرنسية والايطالية والانجليزية ... فاتجه الى الصحافة ، وأصدر صحيفة (أبو نضارة) .

وكانت الصحافة فى بداية عهد الخديوى اسماعيل تعيش فى ظروف مواتية لرغبته فى تقليد أوربا شرط ألا تنشر الصحف ما لا يرضى عنه من جهة ... ولقيام الحرب بين الأتراك والروس ، والتى أثرت على حياة المصريين تأثيرا بالغا ، اذ اضطر الخديوى الى إرسال الفرق العسكرية الى مولدافيا كما ذكرنا ، كما كان مطلوبا منه تقديم مال وتموين للسلطان التركى .

وأراد الخديوى اسماعيل خلال هذه الحالة أن يشكل رأيا عاما فى مصر يشجع الخديوى على التحلل من القيود والفرمانات التى كان يصدرها السلطان ، ويمهد الطريق له لمزيد من الاستقلال ... ووجد الصحافة هى الوسيلة المناسبة لذلك تنويرا للرأى العام المحلى أولا ، واظهارا للسلطان التركى بأن فى مصر رأيا عاما معارضا ثانيا وتهيئة الرأى العام الأوربى باحتمال اتخاذ أية خطوات استقلالية .

وبدأت صحف مصرية عديدة فى الظهور .

ويذكر أن عددا كبيرا من اللبنانيين كان قد هاجر من لبنان تحت ضغط السلطان عبد الحميد وما تعرضوا له من ملاحقة ... منهم من هاجر الى باريس ولندن وصقلية وطنجة ... وأغلبيتهم هاجرت الى مصر .

هاجر الى الاسكندرية التى كانت مقرا لصحافة مصرية جديدة سليم وبشارة تقلا عام ١٨٦٦ حيث أصدرا الأهرام وبقيت بها حتى نقلت الى القاهرة عام ١٨٦٨ ... وهاجر إليها أيضا صحفيون آخرون سليمْ الحموى الذى أصدر (الكوكب الشرقى) عام ١٨٧٣ ... وسليم النقاش وأديب إسحق أصدرا (المحروسة) ، وبلغ عدد الصحفيين اللبنانيين الذين وصلوا الى الاسكندرية ١٨ صحفيا .

وبلغ عدد الذين استقر بهم المقام فى القاهرة ٢٧ صحفيا أصدروا عددا من الجرائد والمجلات على فترات زمنية مختلفة .

وهكذا ازدهرت الحياة الصحفية فى مصر ، وظهرت جريدة (الوطن) أول صحيفة قبطية لصاحبها ميخائيل عبد السيد وكانت تطبع فى مطبعة البطريركية القبطية التى كانت قد استوردت مطبعة خاصة .

وكان هناك حرية نسبية فيما ينشر ، وخاصة فيما يتعلق بمساوىء الأتراك ونشر صور من فساد الحكم فى القسطنطينية والولايات العثمانية ... وهو الأمر الذى كان يشجعه الخديوى اسماعيل دون ادراك بأن حكمه قد يكون موضع المقارنة .

وكان الخديوى اسماعيل حريصا على الدعاية لنفسه خلال مقابلات مع الصحفيين الأجانب ، أو الصرف على صحف تصدر فى الخارج ، ورصد ملايين الفرنكات لتوظيف شخصيات صحفية تعمل لحسابه فى الآستانة وايطاليا وفرنسا ، تجمل وجهه ، وتنشر أخباره وتهاجم خصومه ... كما كان يغدق على الصحفيين الأجانب ويقدم اليهم العطايا والمنح ليدعوا لقضاياه ، ولا ينشروا ما يسيء اليه .

وكانت الحياة فى قمة المجتمع تجنح الى الطابع الأوربى ، كما وصفت ذلك مجلة (ابو نضارة) بقولها : (إنك لتدخل بيوت السادة القادرين فتجد أكثر من مجلة أجنبية للتجميل والأزياء وتسمع حديثا باللغة الفرنسية بين سيدات البيت وآنساته . وتكاد تنكر انك فى بيت شرقى وأنت تنصت الى الموسيقى أو الى الحديث أو تشاهد ربة البيت وبناتها جالسات الى لوحات الرسم تقضين أمامها وجه النهار.... وإنك لتدخل بيوت الموسرين فتجد الموائد قد أعدت على الطريقة الفرنجية ، أو تجد الصخب يملأ فراغ أصحاب البيت ، فقد كانت بيوت القوم منتديات للسمر العابث فى كثير من الليالى وللرقص الخليع حتى

الصباح ، وكان للخمر وغير الخمر مكان فى سمر الرجال بل فى سمر النساء) .

وتجاوز ذلك الى حدود (الوقائع المصرية) التى نشرت وصفا لسباق الخيل ... وهو سباق كان قد شارك فيه الخديوى ووزراؤه وأعيان البلاد .

تغيرت الحياة فى مصر ... لم تعد تكبلها قيود متخلفة أو جامدة ... وأبيحت الخمر فى كثير من الأحياء التى ما كان يستطيع أن يشرب الخمر فيها مواطن من المسلمين أو المسيحيين .

ومن الناحية السياسية شكل الخديوى إسماعيل بعد توليه السلطة بثلاث سنوات فقط مجلسا تشريعيا عام ١٨٦٦ اطلق عليه اسم (مجلس شورى النواب) اقتداء بالملكيات الدستورية الغربية واسترضاء لأهل الرأى ، وبعثا لمجلس المشوره الذى سبق أن أسسه محمد على وألغى فى عهد عباس ، وتقلص فى عهد سعيد الى مجلس حكومى مشكل من أحد أفراد الأسرة المالكة وأربعة ضباط وأربعة من كبار موظفى الدولة للاستشارة فقط .

كان مجلس شورى النواب رغم أنه كان معينا وذا اختصاصات محدودة بداية لحركة ديموقراطية انعكست على الصحافة رغم تواضعها ، ورغم أنها تمت بارادة الحاكم بعيدا عن الضغط الشعبى .

وكتب الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بعد متابعته لمناقشات المجلس فى جريدة الوقائع (ان الخديوى اسماعيل ارتفع بهذا العمل على رأس المتحررين الآن) ... وكان الخديوى إسماعيل قد أمر بعودته من السودان بعد أن كان قد نفى إليه فور تولى الخديوى عباس للسلطة .

وكان تشكيل (مجلس شورى النواب) بعثا للحيوية فى الصحافة المصرية ، فقد وجدت فيما يدور به من مناقشات مادة وذخيرة للنشر .

وهكذا كانت السنوات الأولى من حكم اسماعيل تثبت رغبته فى خلق مناخ ديموقراطى فى مصر عن طريق حرية الصحافة ومجلس شورى النواب ، ولكن الى حد محدود لا يجرح وجوده وسلطته ولا يهدم طبقته .

هل مضى فى هذا الطريق حتى نهايته ؟

وهل ثبت دعائم الديموقراطية وأكد حرية الصحافة ؟

الصحافة الشعبية ... وسقوط إسماعيل

(إن فساد الحال ارتبط بفساد أولياء الأمور وجهلهم بواجباتهم وسوء تدبيرهم واختلال إدارتهم)

مرآة الشرق ــ ابريل ١٨٧٩

ما أن ظهرت الصحف الشعبية غير الحكومية فى مصر حتى وجد الكتاب والمثقفون ساحة يعبرون فيها عن آرائهم ، ومنبرا يدعون من فوقه إلى الاصلاح .

ولم يكن الخديوى اسماعيل الذى فتح الباب للحياة النيابية والصحافة الشعبية يتصور أن رياحا عاصفة يمكن أن تهب عليه من هذا الباب .

واذا كان قد أغلق صحيفة (نزهة الأخبار) التى أصدرها المويلحى ابن الأسرة القريبة من السراى بعد العدد الثانى مباشرة ... فان هذا يدل على أن الضمير الصحفى كان يقظا ، وأن أخطاء النظام كانت جسيمة .

وظهر نوع جديد من الصحافة والكتاب ... صحافة لا تتملق أو تنافق ... وكتاب لا يرهبهم التعطيل والمصادرة وملاحقة السلطات لهم .

ولم تكن الصحافة فى ذلك الوقت تعتمد على الخبر أساسا ... ولكنها كانت تعتمد على الرأى والمقالات والتوجيهات .. التى جزع الكثيرون من أن تكون مديحا للخديوى فى وقت كانت فيه العيوب واضحة ... تماما كالحسنات .

ولم يكن موقف الخديوى اسماعيل خاطئا فقط فى تفضيله الضباط

الشراكسة والأجانب على المصريين ، الأمر الذى ركزت عليه صحيفة (نزهة الأخبار) ... ولكنه كان خاطئا أيضا فى طريقة التعامل مع الجماهير ... اذ جذبته أضواء الغرب ودفعته الى التقليد دون حساب .

ونبت فى المجتمع تناقض غريب ... اندفاع الى الحضارة الغربية ، وإتاحة الفرصة لنوع من الديموقراطية والصحافة الشعبية ... بينما كان هناك تشبث فى الوقت نفسه بأساليب القرون الوسطى فى استغلال الفلاحين .

وصاحب دخول مصر فى طريق التطور الرأسمالى تسلل الأوربيين والأجانب الى مصر ... قلة من ذوى الاختصاص الفنى ... مهندسون وأطباء وزراعيون ومعلمون ورجال ... وكثرة طفيلية من المرابين وسماسرة البورصة والمضاربين والمهربين والمحتالين وأصحاب بيوت الدعارة .

فى عام ١٨٤٠ كان فى مصر ٦١٥٠ أوربيا وصلوا عام ١٨٧١ الى ٨٠ ألف أوربى منهم ٣٤ ألف يونانى معظمهم من المرابين وصغار التجار ، ١٧ ألف فرنسى ، ١٤ ألف ايطالى ، ٦ آلاف انجليزى ، ٧ آلاف ألمانى ، وكان يعيش فى الاسكندرية ٥٠ ألف أوربى ، أى حوالى ربع سكان المدينة !!

ومع هؤلاء تسربت كل فضائل وعيوب الحضارة الأوبية ... انتشرت الأفكار المتحررة وأصبحت الديموقراطية شعارا جديدا فى الحياة المصرية .

والظاهرة التى يجب أن نقف عندها تأكيدا للقومية العربية هى وصول عدد كبير من اللبنانيين الى مصر هربا من جور السلطان عبد الحميد كما ذكرنا ... واشتغال عدد كبير منهم بالصحافة والمسرح ... بل يمكن القول انه كان لهم دور رئيسى مؤثر فى كلا المجالين .

ولم يكن جميع الوافدين من اللبنانيين لهم نفس الموقف من السلطة فى مصر ... تماما كما كان موقف المصريين العاملين فى الصحافة غير موحد .

لا يمكن المقارنة مثلا بين موقف عبد الله أبو السعود أفندى ناشر صحيفة (وادى النيل) ومحمد أنسى أفندى ناشر صحيفة (روضة الأخبار) من جهة معا اللذين تخصصا فى مدح الخديوى ... وبين موقف ابراهيم المويلحى وعثمان جلال ناشرا صحيفة (نزهة الأفكار) التى أغلقت بعد العدد الثانى من صدورها كما ذكرنا .

إختيار المواقف كان نابعا من شخصية الكاتب أو الصحفى ، ونظرته الاجتماعية والانسانية .

وكذلك كان الحال مع الوافدين من لبنان ... كان لكل منهم اختيار وموقف .

وعلى سبيل المثال فان أول صحيفة عربية أصدرها اللبنانيون فى مصر كانت جريدة (الكوكب الشرق) التى أسسها فى الاسكندرية سليم الحموى عام ١٨٧٣ ، أى بعد عشر سنوات من تولى الخديوى اسماعيل الحكم ، وكانت أسبوعية سياسية أدبية ... ولم تمض ٣ سنوات على صدورها حتى أصدر صاحبها جريدة يومية تجارية أدبية هى (شعاع الكواكب) وبذلك كانت أول صحيفة يومية عربية على الاطلاق ... ولكن هاتين الصحيفتين لم تعمرا طويلا ... فقد ألغاهما الخديوى اسماعيل دون مقدمات .

هذا بينما حرصت (الأهرام) التى صدرت فى الاسكندرية عام ١٨٧٦ على أن تكون مستقلة محايدة مسايرة للسلطة مهما كان اتجاهها ... مع حرص على صدق الأنباء ودقة الأخبار وتحرى الحقيقة ، فكانت جريدة إخبارية بكل معنى الكلمة ، لا جريدة توجيه ورأى إلا فيما لا يغضب أحدا ... وهكذا عرفت (الأهرام) بالاتزان والرزانة تحاول ارضاء الجميع ولا تدخل فى معارك .

وفى الجانب المقابل كان هناك عدد من الكتاب اللبنانيين الذين اندمجوا فى

الحياة المصرية واسهموا بالقلم فى المعارك الصحفية ، مثل أديب اسحق الذى أصدر جريدة (مصر) ونادى فيها بأن (مصر للمصريين) دولة مستقلة بعيدة عن التبعية للدولة العثمانية ، وسليم النقاش الذى أصدر مع أديب اسحق جريدة (التجارة) فى الاسكندرية عام ١٨٧٨ ، وسليم عنحورى الذى أصدر (مرآة الشرق) فى القاهرة عام ١٨٧٦ ...

وهكذا أضاف اللبنانيون مزيدا من التطور للصحافة الشعبية ، وأضافوا الى الكتاب والصحفيين المصريين ثراء مهنيا .

ويلاحظ أن عدد الصحف قد زاد زيادة واضحة بعد مرور أكثر من عشر سنوات على حكم الخديوى إسماعيل ... كما يلاحظ أن نبرة النقد والمعارضة قد زادت حدة كلما مضى حكم إسماعيل دون تغيير اجتماعى .

والمؤسف أن إسماعيل الذى شهد عصره أول مجلس ديموقراطى (مجلس شورى النواب) وشهد مولد الصحافة الشعبية الحرة ، كان منحازا شخصيا إلى طبقة الملاك شبه الاقطاعيين .

وكان هو فى مصر أثرى الأثرياء .

وهكذا يجب أن ننظر إلى الديموقراطية وحرية الصحافة خلال هذه الفترة من وجهة نظر المصالح الطبقية المتعارضة ... وليس من وجهة نظر أنها كانت منحة تعبر عن نوايا الخديوى الطيبة .

وفى كل الحالات اختار الخديوى اسماعيل أن يكون رغم كل شىء مع الطبقة التى لا تعبر عن الغد والمستقبل .

ولذا تعرض الخديوى اسماعيل لحملات نقد متزايدة ... ولم يجنح إلى مدحه ومهادنته إلا أصحاب المصالح الخاصة من الذين أغدق عليهم الأموال .

وبرز فى ذلك العهد عدد من الكتاب البارزين ، كان منهم يعقوب صنوع

الذى أغلق الخديوى مسرحه بعد أن أطلق عليه لقب (موليير مصر) ، وجمال الدين الأفغانى الذى وفد الى مصر عام ١٨٧١ وعاش بها الى أن نفى عام ١٨٧٩ ، والشيخ محمد عبده وأديب إسحق وسليم النقاش وغيرهم .

كان جمال الدين الأفغانى يلقى دروسه فى الأزهر وفى بيته وفى قهوة متاتيا التى كانت تطل على ميدان العتبة الخضراء ، وأقيم أمامها بعد ذلك مسرح الأزبكية (المسرح القومى الآن) ... وكان ينشر المقالات الشائقة فى (مرآة الشرق) بالقاهرة ومصر والتجارة فى الاسكندرية .

قالت صحيفة (مرآة الشرق) فى عدد ٢٨ ابريل ١٨٧٩ .

(إن فساد الحال ارتبط بفساد أولياء الأمور وجهلهم بواجباتهم وسوء تدبيرهم واختلال اداراتهم ، لا يعرفون شرعا ولا يرضون قانونا ولا يسمعون رأيا ولا يقبلون ناصحا ، بل تعدوا الحدود وانتهكوا المحارم وثلموا الأعراض وحاربوا العدل وقاوموا الانصاف فطغوا وبغوا ونهبوا وسلبوا وفتكوا حبا فى أغراضهم وكرامة لشهواتهم) .

وقالت أيضا فى عدد أول مايو ١٨٧٩ .

(إنهم شادوا القصور وغرسوا البساتين وتألقوا فى المأكل ، وتفننوا فى المشرب ، وزينوا الملابس ، وسحبوا مطارف العجب والخيلاء ... وأفراد الرعية على مرأى منهم عراة يتضورون جوعا ويتلظون ظمأ ويموتون بردا) .

أما يعقوب صنوع فقد اتجه الى الصحافة بعد أغلق الخديوى اسماعيل مسرحه عقب تقديمه مسرحية (الوطن والحرية) ... ولكن طريقه لم يكن سهلا . فأصحاب الصحف لم يفتحوا الأبواب لكلماته اللاذعة تحاشيا لغضب السلطة ، وخاصة بعد ما ترددت كلمات الخديوى التى قالها ضد يعقوب صنوع عندما سمع ما يوجهه من نقد له ولنظام حكمه (إن لم يسكت هذا

المغرور فانى سأعرف كيف أسكته وأن ضايقنى أكثر مما ينبغى فانى سأسحقه بين أصابعى كما يسحق البرغوث) .

وكان الخديوى إسماعيل يعرف عمق موهبة يعقوب صنوع فى رواية الأحاديث سواء جلس فى حضرة الأمراء ، أو ندوة العلماء ، أو فى مقاهى أبناء البلد .

ويعقوب صنوع أرسله الأمير أحمد ـ حفيد محمد على ـ فى بعثة إلى أوربا وهو صبى صغير ، وعاد من هناك قبل عمله فى المسرح وهو يجيد عدة لغات ... ولذا فانه عندما ضاقت به السبل وقرر العمل فى الصحافة أنشأ صحيفة هزلية باللغة الفرنسية سماها (البعوضة) ، ثم صحيفة أخرى بالفرنسية سماها (النظارة) ، ثم أسس بعد ذلك صحيفة كانت تصدر بعدة لغات إسمها (الثرثار المصرى) .

وأخيرا استقر به الأمر الى اصدار مجلة (أبو نظارة زرقاء) ليصدر عددها الأول وقد كتب تحت عنوان (جريدة مسليات ومضحكات) .

ويلاحظ أن يعقوب صنوع كان قد اتصل بجمال الدين الأفغانى ، وهو يروى قصة اختياره لاسم المجلة فيقول : انه اجتمع طويلا بالسيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لمحاولة اختيار اسم مناسب ... وبالرغم من ذلك لم يتوصلوا الى اختيار مناسب ، فلما خرج أحاط به (المكارية) أى أصحاب الحمير ، وكان كل واحد مهم يريد أن يختار يعقوب حماره ويقول (ده أبو نظارة) فأعجبه النداء ... وقال لقد وجدت اسم الصحيفة ... لأن (أبو نظارة) يوحى بأنه رجل يرى من بعيد ولا تفوته فائتة) .

غلب الطابع المسرحى الهزلى على ما كان يكتبه يعقوب صنوع فى (أبو نظارة) التى صدرت تحوى نقدا لاذعا ضد الفساد وقسوة الضرائب المفروضة

على الفلاحين .

وعلى سبيل المثال يروى هذه الحكاية ، حيث يطلب السنجق من أبى نفوسه شيخ البلد (العوايد والمال والفردة والاعانة والمكايلة والسخرة) فيرد أبو نفوسه قائلا باللغة الدارجة : (هوه انتو خليتو فى البير بكرة ولا سلبه ... والتور وحياة السنجق بعناه بربع التمن ... بجا أجيب من الهواء المحابيب والعوايد والدواهى دى كلها اللى خربتنا وجفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن) !

هذه صورة من صور الحوار الذى كان يقدمه يعقوب صنوع فيجمع فيه بين أسلوب الصحافة والمسرح معا .

ويلاحظ أنّ هذه الصحيفة كانت أكثر الصحف توزيعا ... فقد بلغ توزيعها عدة آلاف من النسخ ، بينما كانت أوسع الصحف انتشارا لا توزع اكثر من ٥٠٠ أو ٦٠٠ نسخة .

كانت (أبو نظارة) شيئا جديدا فى حياة المصريين وفى صحافتهم ... كانت لسانا معبرا عن مآسيهم وعواطفهم بلغة سهلة قريبة الى القلب ... واتجهت المجلة عددا بعد عدد الى قلب الحياة السياسية ، لتنقد بأسلوب مر ساخر دون أن تتعرض للخديوى إلا بالثناء فى غير موجب للثناء كأنه يسخر بولى النعم لأنه كان يتعمد ذكره بالدعاء والتكريم فى مواقف لا يمكن أن تصلح لتكريمه أو الدعاء له .

ولم تكن المجلة هزلا كلها ... ولم تكن لغتها دارجة فقط ... ولكنها جمعت بين الجد والهزل ... بين الفصحى والعامية ... وقد كتب لها جمال الدين الأفغانى ، وهو ما أعطاها ثقلا ووزنا فكريا وصحفيا معا .

ولم يتحمل الخديوى ما كانت تنشره من حقائق فى صورة مؤثرة ... وما كانت تقدمه من رسوم كاريكاتيرية ساخرة ... فأمر باغلاقها بعد أن صدر منها

١٥ عددا ، وأصدر أمرا بنفي يعقوب صنوع من مصر فغادرها يوم ٢٠ يونيو ١٨٧٨ الى فرنسا .

هكذا بدأت تلعب الصحافة دورا مؤثرا فى حياة مصر السياسية ... ويلاحظ أن النقد كان موجها أساسا إلى أسلوب الخديوى إسماعيل فى الحكم وما تبع ذلك من ثراء فاحش وفقر مدقع ... ولم يقف الخديوى اسماعيل عن اندفاعه فى الاستدانة حتى جعل للدائنين فى مصر نفوذاً ، وتولت الأمور فى مصر وزارة أوربية .

ولم يكن نقد الخديوى قاصرا على الصحافة وحدها ولم يكن نبض الحياة السياسية على صفحاتها فقط ... ولكنه كان فى (مجلس شورى النواب) .

والمجلس الذى شكَّله الخديوى كان تقليدا قاصرا لمجالس أوربا ... وكان الاقتراع يتم بشكل غير مباشر ... الناخبون يختارون مندوبين ، ينتخبوا أعضاء المجلس ، ومدة العضوية ثلاث سنوات والخديوى وحده هو الذى يدعو للانعقاد أو يصرفه، للاجازة أو يحله .. واللائحة تفرض رفع جميع قرارات المجلس للخديوى قبل صدورها ... وهو الذى يعين رئيس المجلس ونائب الرئيس .

وقد كتب رفاعة رافع الطهطاوى بعد عودته من السودان قائلا بعد تشكيل هذا المجلس (إن الخديوى اسماعيل ارتفع بهذا العمل على رأس المتحررين الآن) .

ولكن سرعان ما ضاق الخديوى بالمجلس كما ضاق بحرية الصحافة ... فلم يدعه الى الاجتماع سنوات ١٨٧٣ ، ١٨٧٤ ، ١٨٧٥ ... وعندما دعى عام ١٨٧٦ بعد انتخابات جديدة اعترض النائب عثمان الهرميل على طلب الخديوى من الأعضاء مساعدته فى جمع الضرائب ... وكان الخديوى يعقد قروضا يخفى أمرها عن المجلس ، ويقدم الوزراء اليهم بيانات كاذبة .

وصل الصدام ذروته بين المجلس والحكومة عام ١٨٧٩ عندما اعترض النائبان محمد العطار وعبد السلام المويلحى رفضهما لأحد المراسيم المالية التى صدرت يوم ٦ يناير ١٨٧٩ دون مشورة المجلس . وتوالى النواب على المنبر وتصاعدت الحملة ضد الحكومة .

وحمل الخديوى إسماعيل أمرا بحل المجلس ليبلغه رياض باشا رئيس الوزراء للأعضاء ... وفى جلسة تاريخية هامة رفض المجلس أن ينفض ، وتحدث عدد من النواب المعلنين أنهم باقون فى مجلسهم حتى يؤدوا رسالتهم ولتفعل القوة بهم ما تشاء .

واقترن هذا الموقف بتأييد جارف للمجلس ... وخاصة بعد أن اجتمع العلماء والأعيان والتجار والموظفون فى ٢ ابريل ١٨٧٩ وأصدروا (المحضر الوطنى) ، أو ما أطلق عليه تشبها اسم (الماجنا كارتا) مطالبة بإعطاء مجلس الشورى كافة حقوقه كما هو الحال فى أوربا .

وهكذا أثبت المجلس الذى أنشىء ليكون وديعا ... أن له موقفا خاصا يعبر عن إرادة خاصة متناقضة مع إرادة السلطة .

وكتبت جريدة (لاريفورم) التى كانت تصدر فى الاسكندرية مقالا جاء فيه :

(إن النواب الذين يحسبهم بعض الناس آلة فى يد الجناب الخديوى يستعملها فيما يريد قد انبعثت فيهم روح الحمية وحب الوطن) .

ثم قالت :

(لن تموت أمة يكون لنوابها مثل هذه العواطف وهذا الاقدام) .

وعندما وصلت الأمور الى هذا الحد ، حاول الخديوى إسماعيل أمام المقاومة الشعبية أن يعدل الأمر فأصدر قرارا يوم ٧ أبريل ١٨٧٩ بعزل الوزارة

الأوربية وتعيين شريف باشا رئيسا للوزراء قائلا : (إنى اعتبر واجبى المقدس كرئيس دولة وكمصرى أن أراعى وجهة نظر بلادى وأن أحقق أمانى أمتى الشرعية بصورة تامة) .

ولكن انحياز الخديوى إسماعيل للقوى الوطنية والديموقراطية جاء متأخرا بعد أن تسلط الأوربيون على جهاز الدولة خلال ديونهم ، وبعد أن عزل نفسه عن أهداف الطبقة البرجوازية الصاعدة ، وما أثاره من عداوات مع الضباط المصريين بتغليب الشراكسة عليهم ، وما قام به من نفي وإبعاد للقيادات الفكرية والثقافية .

خاض الخديوى اسماعيل معركته الأخيرة وظهره الى الحائط بعد أن فقد ثقة القوى الوطنية الديموقراطية خارج الجيش وداخل الجيش ... وعندما وصله إنذار من وزير خارجية بريطانيا لورد سالسبورى فى ١٩ يونيو ١٨٧٩ يتضمن المطالبة بتنازله عن العرش ، رفض والتجأ الى السلطان الذى أرسل له برقية يوم ٢٥ يونيو بعزله وتعيين ابنه توفيق خديوى على مصر .

وهكذا أسهمت الصحافة الشعبية بدور واضح فى معركة الديموقراطية التى هزم فيها الخديوى إسماعيل .. فسقط من عرشه .

الصحافة المصرية فى المهجـر

(أبو صفارة ... جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية يحفظهم رب البرية من المظالم الفرعونية منشئها محب للاستقلال والحرية)

يعقوب صنوع - باريس

طويت صفحة الخديوى إسماعيل فى ظروف لم تكن تبشر بازدهار الديموقراطية وحرية الصحافة ... وإنما كانت تنبىء بوقوع صدام بين القوى المتناقضة والمتعارضة ... خارج الجيش وداخل الجيش ... بين القوى الوطنية الديموقراطية والقوى الاستعمارية المتزايدة النفوذ .

كانت يقظة الخديوى اسماعيل المتأخرة قد دفعته الى تعيين شريف باشا الممثل للطبقة البرجوازية الوطنية الليبرالية رئيسا للوزراء ، فعزل عددا من الموظفين الأوربيين ، وقرر زيادة الجيش الى ٦٠,٠٠٠ ، وشرع فى اعداد أول دستور مصرى .

ولكن الخديوى توفيق رفض التوقيع على الدستور ... بل إنه أقال الوزارة فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ وعين رياض باشا الذى اشتهر برجعيته وعدائه للديموقراطية .

وهكذا بدأت معركة الصحافة مبكرة ... فقد اصدر الخديوى توفيق أمرا بنفى جمال الدين الأفغانى بعد اقامة فى مصر استمرت ثمانى سنوات ، وأجبر الصحف على نشر الخبر فى صيغة تقول إن هذا المفكر العظيم (يرأس جمعية سرية من الشبان ذوى البطش مجتمعة على فساد الدين والدنيا) .

ورفضت صحيفة (مرآة الشرق) التى كان يكتب فيها الأفغانى بين حين

وآخر ، نشر الخبر بهذه الصيغة ... وأشادت بدور المفكر الاسلامى العظيم ... فصدر قرار بتعطيلها لمدة خمسة أشهر .

ولم يكن قد مضى على نفى الخديوى إسماعيل ليعقوب صنوع أكثر من عام وبضعة أشهر .

وبدأ رياض باشا فى تضييق الخناق على الحركة الديموقراطية والحزب الوطنى المعبر عنها ... وصادر الصحف .. وحاول قطع الصلة بين العناصر الوطنية داخل الجيش وخارجه .

وبدأت هجرة الكتاب والمفكرين والصحفيين ، امتدادا لما بدأ فى عصر اسماعيل .

والصحفيون هم أكثر الفئات حساسية من قهر الحكام .. فانهم إما أن يبيعوا أنفسهم وضمائرهم للحاكم ويعشوا حياة لا يكون لقلمهم أو فكرهم فيها دور مفيد ... وإما أن يتعرضوا للسجن والتشريد اذا لم يتخذوا قرار الهجرة رغبة فى التعبير عن الرأى بحرية .

ولم يلجأ الصحفيون المصريون للهجرة إلا فى عهد الخديوى توفيق ... لم يترك أحد بلده فى عهد الخديوى اسماعيل الا منفيا .. فقد كان هناك قدر معقول ومتاح من حرية الصحافة .

أول صحفى مصرى غادر مصر بارادته الحرة كان ابراهيم المويلحى الذى سبق له أن أصدر (نزهة الأفكار) وصودرت بعد عددها الثانى بأمر الخديوى اسماعيل ... والغريب أنه قرر الهجرة برفقة الخديوى بعد خلعه ، وأصدر فى نابولى صحيفة (الخلافة) التى أخذت تبث الدعاية ضد الدولة العثمانية انتقاما للخديوى .. ولكن لم يصدر منها سوى عددين فقط بعد أن اشتد هجوم ابراهيم المويلحى على السلطان عبد الحميد ، ودعا الى إعادة الخلافة الى العرب .

وأعاد ابراهيم المويلحى إصدار صحيفة عربية ثانية فى ليجورنو بايطاليا باسم (الأنباء) عام ١٨٨٣ .

وهنا يجب الاشارة الى أن ظاهرة الهجرة المصرية التى بدأت مع عهد الخديوى توفيق ... سبقتها هجرة سورية ولبنانية سبق أن أشرنا اليها تحت ضغوط سلاطين آل عثمان .

كانت هناك صحف تصدر فى استانبول مثل (مرآة الأحوال) لرزق الله حسون الحلبى التى صدرت عام ١٨٥٥ ، ثم جريدة (السلطنة) لاسكندر شلهوب عام ١٨٥٧ .. وكان أهمها (الجوائب) لأحمد فارس الشدياق التى تأسست عام ١٨٦٠ واستمرت فى الصدور حوالى ٢٣ عاما .

أما باريس فصدرت فيها أكثر من صحيفة لبنانية (برجينس باريس) للكونت رشيد الدحداح ، (وعطارد) للمستشرق منصور موليتى فى مرسيليا ... ثم صدرت (المشترى) وجريدة (الصدى) .

وفى بريطانيا أصدر رزق الله حسون أول صحيفة عربية عام ١٨٧٢ باسم (مرآة الأحوال) كانت تهاجم مساوىء السلطنة العثمانية .. وأصدر القس الدكتور لويس صابونجى عام ١٨٨١ مجلة (النحلة) أو (الخلافة). وكانت تنتصر جهارا للعرب وتنادى بعودة الخلافة اليهم .. وأصدر مجلة باسم (الاتحاد العربى) عام ١٨٨١ .

ولم تصدر صحف عربية فى الولايات المتحدة أو أمريكا حتى سبعينيات القرن التاسع عشر ، فأول صحيفة عربية كانت تحمل اسم (كوكب أمريكا) وأصدرها اللبنانيان الدكتور ابراهيم ونجيب عرميلى .

كانت هذه هى بداية هجرة العقول العربية التى بدأت من سوريا ولبنان حتى لحقت بها الأقلام المصرية التى أجبرت على الهجرة بالنفى فى عهد اسماعيل

وتوفيق ... وقلة مصرية هى التى فضلت الخروج بدلا من البقاء والمقاومة داخل مصر .

أما تيار الهجرة فقد استمر متدفقا تحت ظروف سياسية مختلفة ، سوف نتعرض لها عندما نصل الى المراحل التاريخية المختلفة .

عندما نفى جمال الدين الأفغانى سافر الى باريس ، وكان قد سبقه اليها يعقوب صنوع فى صيف ١٨٧٨ حيث وصلها منفيا فقيرا ، فعمل مدرسا ليكسب رزقه ، ولكن ذلك لم يكن ليرضى طموحه فنانا وكاتبا .

لم يقبل أن يقصف النفى قلمه ، ولم يرض لنفسه أن يقيم فى عاصمة النور صامتا لا يعبر عن رأى الحزب الوطنى الذى كان قد بدأ يتشكل فى مصر داخل وخارج الجيش .

وقد ساعد يعقوب صنوع فى البداية حب الفرنسيين للفن والثقافة فكتبت عنه جريدة (لوجولوا) على صفحاتها قائلة (من ذا الذى يجهل أبا نضارة ذلك المصرى الذى لقبه الخديوى اسماعيل « بموليير اللغة العربية ») وتستطرد قائلة (إنه المعبر عن رأى الحزب الوطنى ... وأول من ردد عبارة مصر للمصريين) .

واكتسب يعقوب صنوع شهرة واضحة فى باريس حيث كان فنانا مسرحيا ، يجيد الموسيقى والشعر والكتابة الصحفية .

وسرعان ما واصل رسالته الصحفية ، وأصدر صحيفته الأولى (أبو نظارة زرقا الولى) أسبوعية يوم ٧ أغسطس ١٨٧٨ أى بعد شهرين تقريبا من نفيه من مصر ... ومنذ العدد الأول برز موقفه السياسى حيث يدير حوارا بين شيخ الحارة (أى الخديوى اسماعيل) وأبو نضارة ، وأبو الغلب الفلاح تحت رسم يصور يعقوب بن صنوع بقبعته ونظارته وعصاه والخديوى

راكعا والفلاح شامخ الأنف .

وقد تغير اسم المجلة عدة مرات من (أبو صفارة) الى (الحاوى) وأخيرا (أبو نظارة زرقا) ... الى غير ذلك .

كان يعقوب صنوع يغير اسم المجلة ، ليتيح لها فرصة الدخول الى مصر متفاديا رقابة السلطة ومنعها من الدخول .

وكان هذا دليلا على حرص شديد لوصول الصوت المصرى المعارض الى جماهير الشعب .. دون الاكتفاء بإعلاء هذا الصوت خارج مصر .

وتغيير أسماء المجلة كان يقترن بتغيير شعاراتها .

النظارات المصرية ... (جريدة تاريخية علمية تحرير مصر واسكندرية) .

أبو صفارة ... (جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية يحفظهم رب البرية من المظالم الفرْعونية منشئها محب الاستقلال والحرية) .

الحاوى ... (الحاوى الكاوى اللى يطلع من البحر الداوى عجايب انهكت للكسلان والغاوى ويرمى الغشاش فى الحب الهاوى .

وهكذا كانت تتغير اسماء المجلات التى يصدرها يعقوب صنوع .. ولكن التحرير كان متشابها تقريبا ... لم يتغير سوى الأسماء ورؤوس الصفحة الأولى ... وكانت السلطة المصرية متيقظة دائما من وصول هذه المجلات ، مطاردة لكل من يعثر معه على نسخة منها ... الى حد صدور الأمر بنفى اثنين من قراء (الحاوى) ... وفى ذلك كتب يعقوب صنوع مخاطبا الخديوى توفيق (وقد أمر وزيركم بسوء تدبيره المستحسن لدى سموكم بنفى شخصين من معتبرى البلد بسبب وجود جريدتى معهما) .

وأخيرا ... ومنذ شهر ابريل ١٨٨١ استقرت أسماء المجلات فى حدود (أبو نظارة وأبو نظارة زرقاء) حتي توقف صدور صحفه فى عام ١٩١٠

ونحن هنا نتعرض لصحف يعقوب صنوع خلال الفترة التى سبقت الاحتلال البريطانى ، حيث كان هو المصرى الوحيد المنفى الذى يصدر صحفا لها صفة الاستمرار ولا تتوقف لحظة عن نقد الأحوال فى مصر ، ومهاجمة الخديوى ، سواء كان اسماعيل أو توفيق دون تهادن أو مساومة .

وقد نشر هجوما شديدا على أحمد فارس الشدياق لأنه نشر فى صحيفته (الجوانب) التى كانت تصدر بالاستانة تحية لابن الخديوى توفيق .

كتب يعقوب صنوع مقالا تحت عنوان (من أبى صفارة بباريس الى حضرة محرر (الجوانب) بالاستانة جاء فيه :

(بالله عليك يا شيخ يابو لحية بيضاء محترمة تفضلك من كتابة مقالات لا ينتج لشرفك منها الا العار والاحتقار ... انت باسم الله ما شاء الله رجل عالم وفاضل ، وأخو العلم حبيب الحق وعدو الباطل فكيف تحط الساق على الساق ـ اسم كتاب للشدياق ـ وتنجس قلمك بتحرير أقوال فى مدح من لا يليق مثل رياض وتوفيق ... ده كلام عيب يا سى الشيخ ... الخ) .

كان هذا المقال الذى هاجم فيه يعقوب صنوع زميله الكاتب الصحفى أحمد فارس الشدياق بداية لظهور المعارك الصحفية بين أصحاب الأقلام المختلفة آراؤهم حول الأوضاع السياسية فى مصر .

حتى ذلك العهد لم تكن الصحافة المصرية قد عرفت المعارك الجانبية بين بعضها البعض ... فهى إما طافحة بالثناء والمدح على السلطة ... وإما مليئة بالهجوم والنقد لها تبعا للظروف والأحوال ... وإما متخذة النهج الذى سارت فيه صحيفة الأهرام حيث اختارت أن تنشر الحقيقة مع حرص على عدم مهاجمة السلطة ... مع دأب على ترقية نفسها من الناحية المهنية .

وفى ذات الوقت الذى هاجم فيه يعقوب صنوع مجلة (الجوانب)

وصاحبها أحمد فارس الشدياق ، مدح القس الدكتور لويس صابونجي الذى كان يصدر مجلة (النحلة) فى لندن وحاول السلطان عبد الحميد أن يثنيه عن خطه المدافع عن العرب وأحقيتهم بالخلافة ، وذلك بعد أن قرأ عدة مقالات له كان أشهرها (الخلافة فى آل عثمان خرافة) ومقال (الموازنة بين الخلفاء العرب وخلفاء بنى عثمان) ... ولما رفض صابونجي الأموال التى عرضها عليه السفير التركى ، بحث السفير عن رجل هندى كان اسمه عبد الرسول وأوعز اليه باصدار صحيفة عربية اسمها (الغيرة) وأمده بالمال لكى ترد على مجلة صابونجى ... ولكن (الغيرة) كانت ركيكة العبارة ، هابطة الأسلوب ، ضعيفة الحجة فتوقفت بعد صدور تسعة اعداد منها .

أقول أنه فى ذات الوقت الذى هاجم فيه الشدياق مدح وقرظ صابونجى بقوله (جريدة النحلة عدوة الكسل – اللى كلامها أحلى من العسل – ومحررها بلندرة الفاضل السيد صابونجى اللطيف ... فلكونه صابونجى كلامه نقى ونظيف .. وجرناله مملوء من مواعظ وحكم فريدة ... ومقالات فى الآداب والعلوم والفنون مفيدة ... ترشد القارىء فى طريق التمدن والكمال ... وتطرب الشاعر لكونها عذبة لذيذة الأقوال ... حفظ البارى من كل شر منشيها ... وطرح الله لنا البركة فيها) .

هذه صورة من صور الصحافة العربية فى المهجر ... قلوبها معلقة بأوطانها .. وصفحاتها مليئة بنبض شعوبها ... وهدفها تحرر الشعوب من الاضطهاد والظلم .

وقد اقترنت هذه الفترة بتغيرات حادة فى مصر ... فبعد عزل الخديوى اسماعيل توقع الناس تغييرا ... وقد حدث التغيير فعلا ، ولكنه لم يكن إلى الأفضل .

فرضت ضرائب جديدة ، وخصص نصف الدخل الحكومى عام ١٨٨٠

الذى بلغ ٨,٥ مليون جنيه للدائنين الأجانب ، وصدر فى ١٧ يوليو ١٨٨٠ (قانون التصفية) الذى حدد الديون المصرية بمبلغ ٩٨ مليون جنيه ، والذى كتب عنه اللورد كرومر أحد المساهمين فى وضعه فيما بعد يقول :

(كان من النواقص الرئيسية لهذا القانون دفع جزء كبير جدا من مداخيل الدولة الى حاملى الفروض ... فى الوقت الذى أصبحت فيه المبالغ التى وضعت تحت تصرف الحكومة غير كافية إطلاقا) .

وانعكس ذلك الى مزيد من الضغط والارهاب للفلاحين ، ومعاداة للحركة الديموقراطية وحجر على حرية الصحافة ، وعودة الى تأخير دفع مرتبات الضباط والجنود كما حدث فى عهد الخديوى اسماعيل .

وتصويرا لهذه الحالة كتب بلنت الذى أرخ للحركة العرابية قائلا :

(كان الفلاحون فى ذلك الوقت فى فاقة رهيبة ، وكان حملة الأسهم الأوربيون يطالبون بقيمة كوبوناتهم بينما تدق المجاعة أبواب الفلاحين) .

وقال أحمد شفيق باشا المؤرخ المصرى (إن الأمر كان يصل بالفلاحين أحيانا الى حد ترك الأرض لعدم قدرتهم على تحمل الأعباء المفروضة عليهم ... وضباط الجيش لا يحصلون على رواتبهم بالأشهر) .

ضائقة اقتصادية ، وأزمة حرية وديموقراطية ... دفعت الفلاحين الى هجرة قراهم (على باب الله) .. وزادت من هجرة الكتاب والمثقفين ، وخاصة بعد ما تعرض له جمال الدين الأفغانى من نفى ، رغم علاقة ربطت بينه وبين الخديوى توفيق عندما استدعاه وناقشه فى أحوال الشعب قبل عزل اسماعيل .

وكانت تباشير الثورة قد ظهرت خارج الجيش وداخل الجيش ... على صفحات الصحف وفى أحاديث المجالس .

وكتب أحمد شفيق باشا فى مذكراته يقول :

(تحولت مصر الى منبر للخطباء ... وأخذ الناس يخطبون فى كل مكان ... حتى فى الأفراح .. بل وفى المساجد) .

وأصبح السؤال ... ما هو المصير ؟

صحافة الثورة العرابية

(إن للفلاحين مصلحة متميزة لن يعبر
عنها الأثرياء)
عبد الله النديم

كانت مظاهر الصراع فى المجتمع المصرى مع بداية عهد الخديوى توفيق تبدو أكثر وضوحا ، وانعكاسا على صفحات الصحف .

كانت القضايا تتبلور حول المسألة الوطنية والاجتماعية معا .

وكان اتجاه الخديوى توفيق منذ البداية هو الخضوع للنفوذ الاستعمارى فى مصر المتمثل فى بريطانيا وفرنسا .

وفى مواجهة ذلك ونتيجة للسخط المشترك ظهرت قوى جديدة فى طليعة الحركة القومية ... فالى جانب ملاك العقارات والأراضى الليبراليين من طراز شريف باشا رئيس الوزراء الذى أقاله توفيق ، واستبدله برياض باشا ... وصل الى قيادة الحركة الشعبية عناصر ديموقراطية راديكالية من الضباط من طراز أحمد عرابى ... وكان الفريقان يسميان أنفسهما (وطنيين) .

وظهر الحزب الوطنى ــ حسب برنامجه ــ (الحزب الوطنى المصرى هو حزب سياسى وليس حزبا دينيا ، وهو يضم أشخاصا من مختلف الانتماءات القومية والدينية ، وهؤلاء أساسا من المسلمين لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين ، ولكنه يتمتع بتأييد « كل الذين » يفلحون أرض مصر ، وينطقون لغتها ، ولذا فالحزب لا يفرق بينهم ، معتبرا أن كافة الناس أخوة ، وينبغى أن يتمتعوا بحقوق سياسية متساوية ، وأن يكونوا سواسية أمام القانون) .

ولا شك أن هذا البرنامج كان تقدميا فى عصره لما يحويه من أصالة ديموقراطية وروح علمية واهتمامات ثقافية وعدالة اجتماعية .

وطلب جمال الدين الأفغانى من الخديوى توفيق إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى باجراء انتخاب نواب عن الأمة ... ويدعو الى (الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح) مفرقا بين الديموقراطية الحقة والتجارب السابقة .

ويعطى الشيخ محمد عبده لهذا الهدف الديموقراطى نظرة دينية فيقول فى مقال نشرته (الوقائع المصرية) الجريدة الرسمية للدولة ، مبررا مشروعية الحركة الدستورية فى مصر وذلك عام ١٨٨٠ قبل صدور برنامج الحزب الوطنى .

(إن ميل بعض الناس الى المطالبة بالشورى (الجمعية النيابية والبرلمان) ورفض الحكم المطلق ليس مجرد رغبة فى تقليد الأجانب ، بل انه يستجيب لمقتضيات الشريعة) .

ويفسر عبد الله النديم ، أحد رواد الكتابة الصحفية فى ذلك العهد ، عن رأيه فى مقال نشر فى سبتمبر ١٨٨١ يقول فيه :

(إن البرلمان يجب أن يتشكل من ممثلى ــ كافة الفئات ــ من المثقفين والمتعلمين والميسورين والعلماء والكادحين والارستوقراطيين) .

وهكذا اجتمعت آراء الكتاب حول هدف سياسى ... ونظرة دينية واجتماعية متقدمة تؤكد مبدأ الشورى وتحرص على أن تكون تعبيرا عن كافة الطبقات حتى المحرومة منها .

إزدهرت هذه الفترة بحرية صحفية جعلت أديب اسحق يعود الى مصر عام ١٨٨١ بعد أن كان قد هاجر الى باريس حيث أصدر مجلة سياسية باسم

(مصر القاهرة) ساعده فى إصدارها ماديا زملاء من الكتاب الوطنيين ... عاد ليصدر جريدته (مصر) التى كانت تصدر فى الاسكندرية ويكتب فيها جمال الدين الأفغانى ... وبقى هناك فى باريس يعقوب صنوع يواصل رسالته باصدار مجلته (أبو نضارة) .

كانت (أبو نضارة) تعيش نبض الحياة فى مصر ... نشر فى جرأة لا تخشى الرقابة أو المصادرة ... تتسرب الى الناس فى المدن والقرى خلال أسلوب لم تكشف عنه الأيام ، وإن كان يدل على أن هناك تنظيما ما لتوزيع المجلة) .

ظلت (أبو نضارة) تحمل على الاستعمار البريطانى والخديوى توفيق وتحذر من التدخل البريطانى وخاصة بعد حادثة الاسكندرية المعروفة فى ١١ يوليو ١٨٨٢ التى قتل فيها ١٤٠ مصريا ، ٥٠ أوربيا ... وتواصل دعوتها للقضية الوطنية والعدالة الاجتماعية .

وكان نفى جمال الدين الأفغانى بعد شهور من ولاية الخديوى توفيق قد شكل صدمة عند الكتاب والصحفيين ... وأظهر ان الصدام حتمى بين الخديوى توفيق والحزب الوطنى ... وأن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة وقت .

وسرعان ما انجلت الأمور ... واذا كان الفلاح قد وجد من يدافع عنه بين المثقفين والصحفيين ... فانه وجد أيضا من يتحرك من أجله بين ضباط الجيش الذين أدى تناقضهم مع السلطة بما لا يتسع المجال لنشره بالتفصيل ... أدى الى تحركهم فى مظاهرات ضد عثمان رفقى وزير الحربية فى أول فبراير ١٨٨١ حتى أطيح به ثم ضد رياض باشا فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ حتى أطيح به أيضا .

كانت مطالب الجيش تتجاوز الحدود المهنية ... فهى إلى جانب مطالبتها باقالة رياض باشا وزيادة عدد الجيش ... طالبت باعلان الدستور وتشكيل

مجلس نواب على النظام الأوربى .

وتجلت الفروق واضحة بين السلطة والشعب .

الخديوى توفيق يقول لضباط الجيش المتظاهرين :

(كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت هذه البلاد عن أبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد إحساناتنا) .

وكان رد عرابى :

(لقد خلقنا الله أحرارا ولن نستعبد بعد اليوم) .

عاد شريف باشا الى رئاسة الوزارة ... وبدأت فترة ذهبية فى حرية الصحافة وظهرت صحف ثورية تسبح فى فلك الثورة العرابية ، كالحجاز ، والمفيد ، ومصر الفتاة ، والفسطاط ، والسفير ، والنجاح وغيرها ...

أحسنت الصحف المصرية استقبال وزارة شريف باشا .

ونشرت (التايمس) البريطانية مقالا قالت فيه :

(إن حركة الجيش لم تغضب الأجانب ، وانها قوت ما فى مصر من رأى عام) ... كما طالبت أصحاب الديون بالصبر والاناة حتى تتم حكومة شريف باشا اصلاحاتها .

كان تعيين شريف باشا رئيسا للوزراء ، فرصة للتنفيس أمام الصحف المصرية ، ولكن بعضها نشر مقالات حادة ضد الأجانب وقناصلهم ... الأمر الذى أحرج شريف باشا ، وهو لم يستقر بعد على دست الحكم .

ولم يتعامل شريف باشا مع الصحافة كما كان يتعامل رياض باشا ... لم يغلق الصحف ولم يعاقب الصحفيين ... وانما أرسل لهم إخطار عتاب قال فيه (الجرنالات تعودت من مدة على الخوض فى كلام يتعلق بالأجانب مع غاية

الحد واظهار التأثر منهم والتغيظ بلا سبب ولا موجب) ثم يؤكد لهم (حرص الحكومة على مصالح البلاد أمام الدول جميعا) .

وازدهرت حرية الصحافة خلال هذه الفترة من الديموقراطية النسبية ... ولكن الخديوى وأعوانه من الرجعيين لم تسعدهم هذه الحالة ، فلجأوا مع بعض القوى الاستعمارية الى محاولة إثارة الفرقة والطائفية الدينية ، واستخدموا فى سبيل ذلك جريدة (ليجيبت **L'Egypte**) التى كانت تصدر بالفرنسية فنشرت مقالا فى ٢ أكتوبر ١٨٨١ عرضت فيه بالنبى محمد ، فأصدر شريف باشا قراره بالغاء هذه الجريدة ، رافضا تدخل القنصل الفرنسى الذى أراد حمايتها حتى اضطر صاحبها الى مغادرة البلاد .

كان هذا هو القرار الوحيد الذى أصدره شريف باشا لمصادرة إحدى الصحف ، تفاديا للفتنة الطائفية .

وقد انبرت بعض الصحف الوطنية لاطفاء نار الفتنة ، كما كتبت صحيفة (المفيد) :

(ولكننا أبناء هذا الجيل يعار علينا أن نسلك ذلك المنهج ونجعل الاختلاف فى المشرب والتباين فى العقيدة علة لعداوة مواطنينا الذين ليسوا على شاكلتنا فى الدين مع كونهم مشاركين لنا فى الجنسية والوطنية ، ثم اذا بقى شيء من أدران الأقدمين فى نفوس العامة فعلى النبهاء الذين تنورت أفكارهم وعلموا أن ما أصاب الأقدمين من الضعف وما لحقهم من الشر بسبب من تعصبهم للدين أن يدعوا الناس الى ترك هذا التنابذ الذى لا خير فيه) .

الصحف الوطنية تقاوم هذه الردة الطائفية التى كانت تشجعها السراى والقوى الأجنبية .

وكانت الصحف فى ذلك الوقت تأخذ اتجاها مؤيدا للثورة ... البعض فيه نفاق أكثر من الصدق .. والبعض خوف ورهبة .

وعلى سبيل المثال فان صحيفة (البرهان) التى كانت تعتبر بمثابة لسان حال الخديوى توفيق ، عزلت الشيخ حمزه فتح الله من تحريرها تقربا للثورة والثوار .

وقد برز فى هذه الفترة عبد الله النديم الذى ولد فى الاسكندرية عام ١٨٤٣ وتخرج فى جامع ابراهيم والذى تميز بحياته الشعبية ، فقد عاشر الفلاحين واشتغل معهم بالزراعة وقال فى ترجمته لنفسه (عندى من الأوباش كل سكير حشاش ... حزب يلعب الضمنة وفريق يقرأ كليلة ودمنة .. وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقزح كالقرد أغلبهم سكارى وكلهم حيارى لا يعرفون الهدى ولا يدركون الردى أعبدهم اذا رأى الخمرهَامَ فلا يرد الا بالحمام وأصلحهم نواسى العمل وأقنعهم أشعبى الأمل ، لا يركعون ولا يتصدقون ، ويحلفون ولا يصدقون ، ولا يرون عيبا فى فحش منهم أغلظ طبعا من وحش ، اذا حدوثك كذبوا ، وان ائتمنتهم خانوا وسرقوا ، وان هديتهم ضلوا وسرقوا) .

هكذا وصف عبد الله النديم القوم الذى نشأ بينهم ، سرير نومه حديدى خشن وسترته الوحيدة قديمة ... وفكره يتأثر بمأساة هؤلا الذين تطحنهم الحياة وتصرفات الأثرياء .

وقد بدأ عبد الله النديم الكتابة فى الصحف منذ عهد الخديوى اسماعيل ، وقال عنه جمال الدين الأفغانى قبل نفيه من مصر (ما رأيت مثل النديم طوال حياتى فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعا محكما إزاء معانيها اذا خطب أو كتب) .

وقام النديم بجولة فى قرى مصر ومدنها بين أول فبراير ١٨٨١ و ٩ سبتمبر من نفس العام يعيش حياة الفلاحين ويحدثهم عن حياة الأغنياء ، ويستحثهم على الدفاع عن مصالحهم والثورة ضد مستغليهم ... فأشعل النار الكامنة فى

النفوس ، وأيقظ الذين استكانوا الى حياة البؤس .

وقد دافع عبد الله النديم فى مقالاته وأحاديثه عن ضرورة تمثيل مجلس النواب لكافة الطبقات حتى لا ينفرد الأغنياء بتوجيه المجلس ودفة الحكم ، وفى تحليله لهذه القضية قال : (إن الوطن فيه الذكى والغبى ، والغنى والفقير ، والأمير والحقير ، فان كان حق الانتخاب قاصرا على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب مجلسا للأغنياء وحدهم) .

ولذا وقف النديم دائما مع الفلاحين والمستضعفين ، واعتبر المجالس النيابية التمثيلية مؤسسات طبقية ، وأن سيطرة الملاك على مجلس النواب الذى كان مزمعا تشكيله فى مصر وانفرادهم بعضويته ستجعلهم يستصدرون تشريعات تخدم مصالحهم وتضر مصالح بقية الطبقات .

كان النديم يعبر عن أفكاره بالكتابة فى مجلة (التنكيت والتبكيت) والتى صدر عددها الأول فى يونيو ١٨٨١ ، وقصد منها كما يقول أن تكون (لسانه ليكون له فى كل بلد محافل خطابية) .

وقد حدد النديم هدف صحيفته بقوله : (إنها تتضمن حكما وأدابا ومواعظ ومضحكات بعبارة سهلة) .

وفسر النديم صدور بعض أعدادها بالعامية ... تماما كما كان يقوم يعقوب صنوع فى صحفه بقوله : (أحاديث تعودناها ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجأ لقاموس ولا تلزم مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ولا شيخ يفسر معانيها ، وانما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ونديم يسامرك بما تحب وتهوى) .

وكما تميز النديم بموهبة الكتابة ، تميز أيضا بموهبة الخطابة .

هاجمت (التبكيت والتنكيت) الاستعمار ودافعت عن الشخصية القومية للمصريين ، وفضحت القيم الاقطاعية ، واستثارت همم الفلاحين ... وقد وصل المطبوع منها إلى أكثر من ٣٠٠٠ نسخة وهو ما كان يمثل رقما جيدا للتوزيع فى ذلك الوقت .

ولم يكن عبد الله النديم يمثل شخصية انعزالية منفردة ، ولكنه كان مرتبطا بالقوى الثورية والحزب الوطنى ... وطبيعة الأمور فى ذلك الوقت كانت تفرض ذلك ، إذ أن الحزب الوطنى لم يكن له طابع الأحزاب فى وقتنا هذا ... ولم تكن أمامه أحزاب منافسة ... وانما كان يشكل من ناحية التركيب والتنظيم جبهة واسعة تضم عدة طبقات وتكوينات اجتماعية ... وأطلق عليه لفظ الوطنى ليقابل جماعات الشراكسة والترك والأرمن والألبانيين التابعين للدولة العثمانية .

عاد عبد الله النديم الى القاهرة من ريف مصر يوم ٩ سبتمبر ، وصدرت مجلته حزبية ملتزمة ... تأخذ نفس الاتجاه الذى تدعو اليه قيادة الثورة العرابية .

وفى أكتوبر ١٨٨١ أصبحت صحيفة النديم صحيفة رسمية للثورة ، وغيرت الصحيفة اسمها الى (الطائف) .

وكان تغيير الاسم ذا دلالة كبيرة ، إذ أن (التبكيت والتنكيت) كانت تتجه الى الطبقات الشعبية تسخر وتهاجم وتضىء بالأسلوب المناسب ... ولكن قيادة الثورة رأت أن تغير طابعها الشعبى وتحولها إلى صحيفة أكثر وقارا واحتشاما .

وقد كتب أحمد عرابى بذلك خطابا الى ادارة المطبوعات قال فيه : (إن فوات زمن التنكيت، اقتضى تبديل جريدة (التنكيت والتبكيت) الأدبية التهذيبية ، وان يكون موضوعها سياسيا ، تهذيبيا للذود عن حقوق الأمة والمدافعة عن حكوماتها التوفيقية) .

وبعد افتتاح مجلس النواب قرر المجلس اتخاذ (الطائف) منبرا رسميا له ، وكتب رئيسه محمد سلطان باشا خطابا بذلك الى ناظر (أى وزير الداخلية) .

وقد حدد عبد الله النديم رسالتها بهذه الكلمات الافتتاحية :

(سوف تطالب بحقوق الأمة وتدافع عن حقوق الحكومة ، بمعنى أنها تقوم بخدمة الأمة من حيث الذب عنها ونشر أفعال الظلمة المخالفين لسير حكومتنا الحرة العادلة وتدافع عن الحكومة من يرميها بسوء من الجرائد الافرنجية والعربية) .

وقيم عبد الله النديم دور الصحافة باعتبارها مؤسسة ثورية حيث قال :

(حيث أن الأمة صار لها مجلس نواب تعرف به حقوقها ، كذلك صار لها جريدة تنشر فضائلها وتدفع ألسنة الأعداء عنها) .

وأصبحت (الطائف) فعلا الجريدة الرسمية ، أى جريدة الحزب الحاكم ... وعندما تعرضت الثورة لمؤامرات الرجعية ، انجرفت (الطائف) الى هجوم حاد على الخديوى توفيق ونعتته بأنه (الخائن المخدوع) ... وشملت حملتها الأسرة الحاكمة كلها ، ونشرت فضائح الخديوى اسماعيل ... وهاجمت فى حدة ارتماء توفيق فى أحضان الدول الأجنبية وعدائه لأهل البلاد فاتهمته بخيانة الوطن والدين ... الأمر الذى أجبر الوزارة على اصدار قرار بتعطيل الطائف لمدة شهر اعتبارا من ١٧ مايو ١٨٨٢ كتسوية مؤقتة للأزمة مع السراى .

وعندما تأزمت الأمور بين عرابى والخديوى توفيق ، جنحت بعض الصحف المعبرة فى أغلبها عن الأجانب نحو الخديوى ، والتزمت صحف الثورة فى موقفها .

وعندما بدأ الصدام مع البريطانيين حرصت قيادة الثورة على فرض الرقابة

على الصحف والمطبوعات ، بل وأغلقت بعضها مثل (الزمان) و (البرهان) فقد كانت حالة الحرب تفرض نفسها ... ومعسكر المتهادنين يزداد اتساعا ... وخاصة بعد أن أصدر الخديوى أمرا بعزل عرابى من وزارة الحربية ورفض تنفيذه معلنا المقاومة ومخاطبا الخديوى قائلا :

(إن كنت يا مولاى حرا فيجب حضوركم الى عاصمة البلاد ، وإن كنت أسيرا لدى الانجليز أو متحيزا إليهم فلا يمكن التسليم بقبول ما يكتبه العدو بلسان سموكم ، أو عن لسان رئيس النظار وزملائه) .

لم يحضر الخديوى توفيق الى العاصمة ... فقد كان ضالعا مع البريطانيين الذين دخلوا بقواتهم مصر بعد هزيمة جيش الثورة العرابية فى معركة التل الكبير .

وبدأت صفحة جديدة فى حياة مصر ... وحياة الصحافة أيضا .

الصحافة فى أول عهد الاحتلال البريطانى

(ليس من الفتنة أن ندعو المصريين الى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة)

جمال الدين الأفغانى

لم تكد تمضى ثلاث سنوات على حكم الخديوى توفيق حتى كان الجيش البريطانى يحتل مصر ... ويصدر الخديوى مرسوما من جملة واحدة (تسريح الجيش المصرى) !!

أغلقت المدارس الحربية عدا واحدة ، وأغلقت مصانع الأسلحة والمدرسة البحرية ، وعطلت الترسانة البحرية وبيعت السفن .

صدر قرار خديوى بتجريد جميع الضباط من رتبة يوزباشى فما دون من الذين اشتركوا فى الثورة العرابية ... واعتقل ٣٠,٠٠٠ شخص ، وقدم للمحاكمة عدد كبير من زعماء الثورة .

وفى ديسمبر ١٨٨٢ صدر الحكم باعدام احمد عرابى ... ولكنه استبدل بالنفى خشية أن يؤدى ذلك الى انتفاضة شعبية .

نفى سبعة من الزعماء رحلوا عن مصر فى نفس الشهر الى جزيرة سيلان مع ثمانية وأربعين من أبنائهم ورفاقهم .

طويت صفحة الثورة العرابية وفى قلوب المصريين حزن عميق ... وشيعتها من السلطة الخديوية موجات من الاساءة والتشنيع ... حتى أصبحت البطولة خيانة ، والثورة هوجة ، وأحمد عرابى مرشق السهام واللعنات .

وسرعان ما انقلبت الحال ... هرب عبد الله النديم كاتب الثورة وخطيبها الى الريف الذى احتضنه من قبل ... عاش مختفيا تسع سنين فى أحضان شعب مصر وصدره الحنون ... أعلنت السلطة عن جائزة ألف جنيه لمن يرشد عنه ، وهو مبلغ فى ذلك الوقت كبير ... ولكن العيون التى لمحته أغلقت عليه الجفون تحميه ... ورفض البسطاء أن يبيعوا ضميرهم ووطنيتهم بالمال .

ومن ريف مصر كتب عبد الله النديم الرسائل الى أحمد عرابى فى منفاه ، يشحذ من همته ، ويحاول أن يبدد من نفسه مرارة نكران الجميل ، ويؤكد له أن الناس تعيش فى ذكريات أيامه قائلا : (أنت فى مصر وان كان جسمك فى سيلان ، فذكرك فى الألسن ورسمك فى الأعيان) .

وعلى قدر وفاء عبد الله النديم للثورة ومصر ... على قدر ما لحقت الهزيمة أيضا بعدد من الصحفيين ، فغيروا مواقعهم ، وبدلوا كلماتهم ، وشرعوا يهاجمون أحمد عرابى وثورته .

صحيفة الوطن قالت :

(ولما اشتد كرب تلك الفئة الباغية ـ تقصد عرابى وصحبه ـ كنا نتمنى لو أتت دولة البرابرة لتنقذنا من مخالبها فما بالك بدولة بريطانيا المتمدنة المشهورة بحسن السياسة ، ومزيد الكياسة ، ودهاء الرجال ، وسداد الأعمال) .

وصحيفة الأهرام تقول :

(العاصى عرابى ورفاقه البغاة) .

ولم يكن ذلك فى بعض الأحيان تطوعا من صحافة ذلك الزمان ولا عداء ساحقا للثورة ... ولكنه كان مجاراة للظروف التى استجدت فى مصر باحتلال البريطانيين للعاصمة ، حيث بدأوا بمذبحة للصحافة المصرية ... جريدة الطائف

توقفت باختفاء عبد الله النديم .. والغى البريطانيون وصادروا صحيفتى (الزمان) و (السفير) ، وكان الغاء الأولى كما يقول الدكتور ابراهيم عبده من (قبيل الاستصواب) والغاء الثانية مبنيا على أن صاحبها من أنصار عرابى .

وأغلق البريطانيون نهائيا أو إلى أمد معلوم صحف الوطن ، واسكندرية ، ومرآة الشرق ، والبرهان ، والاجبشيان جازيت ، والصادق ، والفلاح ، ولوبسفور اجبشيان ، وغيرها ... أى عوقب بالوقف والمصادرة والإلغاء والانذار أكثر من تسعين فى المائة من صحافة مصر .

وكانت حجة الحكومة فى أنها صحف تعلم (الفحش والبذاء والمفسدين لأخلاق العامة) !

ولذا قد تصدمنا أقوال بعض الصحف ... ولكننا نجد فى الحالة التى اكتسحت مصر بعد الاحتلال ما يجعلنا نردد (أن القابض على نفسه كالقابض على الجمر) ... وان التغيرات التى حدثت فى لهجة وأقوال بعض الصحف لم تكن أصيلة من الأعماق ... ولكنها بطبيعة الحال تعتبر مرفوضة ومدانة وبعيدة عن الوطنية ... اذ انها زيفت صورة الثورة الشعبية وأساءت إلى زعيمها الذى قاوم الاستعمار وعبر عن ارادة الفلاحين والجيش .

ومن الذين تعرضوا للمحاكمة بعد هزيمة الثورة العرابية الشيخ محمد عبده الذى لم يكن من زعماء الثورة العرابية فى مراحلها الأولى ، ولكنه صار من زعمائها فيما بعد ... تخرج فى الأزهر واشتهر مفكرا اسلاميا مستنيرا يحمل راية الاصلاح والتجديد ، ويهاجم الرجعية والجهالة ، ويعمل على تحرير الدين من الجمود ...

كان محررا فى (الوقائع المصرية) ثم رئيسا لتحريرها ، فظهر اتجاهه الفكرى ونظرته الشاملة ودفع المجلة خطوات الى الأمام .

وكان الشيخ محمد عبده الذى وضع صيغة اليمين للثوار عندما جاء الأسطولان الانجليزى والفرنسى حيث أقسم الجميع من ضباط ووزراء على أن يكونوا يدا واحدة للدفاع عن الوطن .

حوكم محمد عبده وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات ، فخرج من مصر والناس تذكر له فتاويه التى كانت تغير كثيرا من أفكار الجماهير ... ومن أمثلة ذلك تحليله أكل اللحوم التى يذبحها النصارى اعتمادا على الآية الكريمة (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حَلٌّ لكم) ، وأفتى بجواز لبس البرانيط ، كما أباح الصور والتماثيل التى كانت محرمة استنادا الى أن معنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان تماما ... ووصف الرسم بأنه ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، كما أفتى بايداع الأموال فى صناديق التوفير وأخذ الفوائد عليها .

خرج الشيخ محمد عبده من مصر والناس تذكر له حربه من أجل اصلاح التعليم فى الأزهر ، ودعوته الى اطلاق سلطان العقل فى مسائل الدين ، والهجوم على الطرق الصوفية وما تقوم به من بدع فى الموالد .

خرج الشيخ محمد عبده الى سوريا ، حيث التقى هناك بجمال الدين الأفغانى ، وذهب الاثنان معا الى باريس حيث شكل الاثنان ومعهما بعض الهنود والمصريين جمعية (العروة الوثقى) التى ترمى إلى رفع شأن الاسلام والمسلمين وتوحيد كلمتهم ، دون المساس بالأديان الأخرى ... بل كان شعارها التسامح والتضامن مع سائر الأديان حتى كان من أنصارها ومؤيديها كثيرون لا ينتسبون الى الاسلام .

وصدرت مجلة (العروة الوثقى) فى باريس فى مارس ١٨٨٤ يشرف عليها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ... وانضمت الى قائمة الصحف فى المهجر .. والتى كانت مجلة يعقوب صنوع (أبو نظارة) مازالت أكثرها

انتشارا واصرارا واستمرارا .

وظهرت فى (العروة الوثقى) مقالات ملتهبة كتبها جمال الدين الأفغانى تحت عنوان (فرصة يجب ألا تضيع) تحدث فيها عن حرب الشعب وأنها أجدى فى ظروف معينة من الحرب النظامية .

كان فى المقال دعوة لما نسميه اليوم حرب العصابات أو حرب الأنصار فى مصر ... وضرب الأفغانى مثلا لهذه الحرب الشعبية التى خاضها الشعب الأفغانى ضد ٦٠,٠٠٠ من قوات بريطانيا فانتصر عليها بعد عامين من الاحتلال .

وهو يعبر عن ذلك بقوله (ان مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهزامهم) .

ويستطرد قائلا فى هذه الدعوة الجريئة التى لم يكن لها مكان طبعا على صفحات صحف تصدر فى مصر ... الأمر الذى يظهر أن صدور صحف فى الخارج هو أمر يؤدى إلى كتابة الحقيقة كاملة ، والتعبير عن الرأى فى شجاعة وجرأة ، وابقاء جذوة النضال والمقاومة مشتعلة ... شريطة أن يكون لهذه الصحف اتصال بالداخل وأسلوب توزيع يصل بآرائها الى الجماهير .

الدعوة الى الحرب الشعبية على صفحات الصحف كانت جديدة تماما ... وكانت تتسق مع ما ينادى به عبد الله النديم فى جولاته بالريف أثناء هربه من السلطة تسع سنين .

ويقول الأفغانى فى هذا المقال الذى حملته صفحات (العروة الوثقى) :

(ليس من الفتنة أن ندعو المصريين الى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن ، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ... وانما ننادى على

صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه ، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه ، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق فى كل أمة ... وعلى المصريين عموما والفلاحين خصوصا ، أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة الانجليزية كل ما تطلب منهم وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين ... لا نطيع الا حاكما وطنيا ... فان فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارا ... بل ومن الجنس الانجليزى نفسه) .

كانت كلمات جمال الدين الأفغانى الملتهبة ، تلتقى مع كلمات الشيخ محمد عبده الهادئة المضيئة على صفحات (العروة الوثقى) التى كان دخولها محرما الى مصر .

فرضت وزارة نوبار باشا غرامة من جنيه الى خمسة جنيهات لكل من يحوز نسخة منها .. وهو مبلغ كبير القيمة فى ذلك الوقت ... وهكذا أصبحت (أبو نظارة) و(العروة الوثقى) معا فى القائمة السوداء للحكومة .

ولكن (العروة الوثقى) لم تستمر فى الصدور لأكثر من عام حيث صدرت ثمانية أعداد ... بعد أن استخدم المستعمرون كل الوسائل لحجب صوتها ومنع ظهورها .

كان الاحتلال البريطانى فى ذلك الوقت يبحث عما يثبت أقدامه فى أرض مصر ... فبعد تسريح الجيش ومذبحة الصحافة ، أو الى جوارها صدر قرار بحل مجلس النواب السابق ، وتنفيذ نظام وضعه اللورد دوفرين سفير انجلترا فى الاستانة بعد دراسة ستة أشهر ألغى فيها مجلس النواب السابق ... ووضع نظاما مقتبسا من الهند وصفه بأنه (شبه برلمانى دستورى) .

وكان يتكون من مجلسين ... الأول مجلس شورى القوانين من ٣٠ عضوا ، ١٤ منهم يعينون بصفة دائمة ، ١٦ ينتخبون من مجالس الأقاليم لدورة ٦ سنوات ، ومهام المجلس الرئيسية هى التشريع والميزانية ، ولكن ليس له حق

اصدار القوانين اذ أن رأيه استشارى فقط ويمكن لمجلس الوزراء رفض مشورته على شرط أن يبدى أسباب الرفض .

والمجلس الثانى هو الجمعية العمومية وتتألف من ٨٢ عضوا وتضم الوزراء وكان عددهم ٦ فى ذلك الوقت ، وأعضاء مجلس شورى القوانين ، ٢٦ مندوبا من كبار الملاك من مختلف أنحاء البلاد ويرأسها رئيس مجلس شورى القوانين .

بدأ تطبيق هذا النظام فى أول مايو ١٨٨٣ .

لم يكن للفلاحين والفقراء صوت يدافع عنهم فى المجلس فقد كانت شروط الانتخاب والتعيين تحدد نوعية الأعضاء وتجعلهم من كبار الأثرياء .

واذا كان صوت الفقراء قد غاب عن النظام التشريعى ، فإنه احتجب مؤقتا عن الصحافة المصرية فى ذلك الوقت .

لم يعد هناك أحد يدافع عنهم ... فلم يكن لجماهير الشعب حق الانتخاب ... فقد ضاق هذا الحق واقتصر على أصحاب الثروات ... ولم يكن هناك أيضا بين أصحاب الصحف من يملك روح المقاومة والمواجهة والتضحية .

وهكذا بدأ الاحتلال البريطانى عهده فى مصر باقامة مجالس نيابية ممسوخة دفعت بعض النواب البريطانيين للقول فى مجلس العموم عن نظام الحكم فى مصر ساخرين (انها صورة كاذبة للحكم الدستورى أجيد رسمها) .

وبدأ عهده أيضا بصحافة مصادرة أو مكممة بقيود الأوامر العسكرية وغياب السلطة الوطنية .

وكان الاستعمار فى أيامه الأولى يردد دائما أن بقاءه موقوت وأنه لن يستقر فى أرض مصر .

ومع ذلك لم تخمد جذوة الديموقراطية ، ولم تمت روح المقاومة .

الصحافة فى تسعينات القرن التاسع عشر

(إن الغرض السياسى من تأسيسنا ظاهر ومعلوم وهو تأييد السياسة الانجليزية)

المقطم ١٨٨٩

أصبحت الكلمة العليا فى مصر بعد فشل الثورة العرابية ، فى يد قوات الاحتلال البريطانية ، واحتجب عدد كبير من الصحف التى كانت تناصر الثورة العرابية ، وتغير موقف بعضها .

كانت صحف القاهرة تؤيد الثورة حيث كان أحمد عرابى ، وكانت صحف الاسكندرية تناهض الثورة حيث كان يقيم الخديوى توفيق فى حماية الأسطول البريطانى .

ولكن بعد دخول الاحتلال لم تعد هناك صحف تناصر الثورة وأفكارها وقيمها سوى تلك التى كانت تصدر خارج مصر .

وبعد استقرار قوات الاحتلال واحتجاب معظم الصحف ، ومطاردة التوزيع السرى لصحف الخارج ، ووضع النظام الذى وضعه المعتمد البريطانى اللورد دوفرين موضع التطبيق ... بدأت صفحة جديدة فى حياة مصر ... كانت فيها تناقضات واضحة .

اللورد دوفرين لم يكن يكترث بما أصبحت تنشره الصحف المصرية ، واعتبره مما لا يقلق أو بسبب الخطر ... ولذا أطلق لها العنان ، وأغفلت الحكومة تطبيق قانون المطبوعات .

وكان اللورد دوفرين قد أدرك أن هزيمة الثورة ونفى أحمد عرابى قد جعل الحركة الوطنية حركة مثقفين فقط ، منبتة الصلة بالجماهير العريضة ... ولذا ظهرت هوة واضحة بين المثقفين المصريين المتعلمين والمتطلعين للحضارة الأوروبية . وبين جماهير الفلاحين وفقراء المدن .

لم يعد يهتم المثقفون كثيرا بحياة الكادحين والفقراء ، ولم تشغل بالهم أزمة حياتهم ... كما أخذت القوى الشعبية موقفا سلبيا تماما لأنها فقدت ما كان يلهب حماسها ولم تعد هناك قضية تثير اهتمامها وتبعث أملها فى كل ما يدور حول السلطة ... سواء أكان الخديوى أو قوات الاحتلال .

افتقدت مصر الحركة الوطنية المنظمة ... وتعرض كوادر الثورة للاعدام أو السجن أو النفى فى الصحراء ... ومارس بعضهم وخاصة خلال ثمانينات القرن التاسع عشر نشاطا سريا .

أدت صدمة الاحتلال بعد ثورة عرابى إلى تدنى حاد للفعالية السياسية عند الجماهير وأدت عزلة المثقفين إلى تراجع النضال السياسى المباشر ، والاقتصار على الأعمال الفكرية التنويرية .

عبر المؤرخ عبد الرحمن الرافعى عن هذه الفترة بقوله انها (فترة انحطاط القوى .. اجتاح البلاد شيء أشبه ما يكون باليأس .. وظهر كأن ثمة وعيا بعجزها الخاص أمام المحتلين) .

ولذا لم يكن اللورد دوفرين مهتما بفرض قيود على الصحافة ، كما أن الصحافة فى عهد اللورد كرومر نالت نصيبا من الحرية فى التفكير والتعبير حتى انها حسدت على حريتها من جيرانها وزميلاتها فى البلدان العربية الأخرى .

ومما يؤثر عن اللورد كرومر قوله (اذا وضعت الصمام على المرجل انفجر ، أما إذا تركت البخار طليقا فان سلامة المرجل مضمونة) .

وعلى مدى السنوات التالية ، ونتيجة لحرية الصحافة النسبية ، بدأت الأمور تستقر على أرضية جديدة من الرأى الحر ونشر الأفكار المستنيرة .

وبدأت الصحف تمارس دورها فى النقد ... عارضت الاحتلال ... وعارضت سلطات الموظفين الانجليز فى دوائر الحكومة ووقفت الى جانب الموظفين المصريين كلما وقع خلاف بينهم وبين الرؤساء البريطانيين .

وكان البريطانيون قد أخذوا مراكز القيادة فى الجيش أساسا وفى خارج الجيش أيضا ... وأدخل الاحتلال البريطانى تغيرات فى واقع المجتمع عندما أدخل نظام (البدل النقدى) عام ١٨٨٦ ليصبح التجنيد فى الجيش قاصرا على الفقراء ، ويعفى منه أبناء الضباط ورجال الدين وموظفو الحكومة وطلبة المعاهد الدينية ... الأمر الذى أدى الى زيادة الفارق الطبقى بين الضباط والجنود ... كما زادت الهوة اتساعا بين المثقفين والطبقات العاملة كما ذكرنا .

تم هذا التغيير بعد أن رسم الاستعمار خطة تدمير الجيش المصرى وتصفيته ... فانه عندما قامت ثورة المهدى كان الجيش المصرى موزعا بين مصر والسودان ، وانتهز الاحتلال فرصة اشتعال هذه الثورة ليتخلص من كافة الجنود والضباط الذين اشتركوا فى الثورة العرابية ، فأقام لهم معسكراً للتدريب فى القناطر الخيرية بعد أن عين الجنرال « هكس » ليقود الجيش فى السودان بدلا من عبد القادر باشا حلمى .

ونفذ الاحتلال خطته فعلا وأبعد ٢٣,٠٠٠ جندى مصرى من حاميات المدن السودانية قبل احتلال الثورة المهدية للخرطوم فى ٢٣ يناير ١٨٨٥ .

واقترن هذا الموقف المأساوى الذى سيطر فيه البريطانيون على مصير وحياة الشعب والجنود المصريين ... بحالة من اليأس نتيجة اتساع الثغرة بين الطبقات المثقفة المستنيرة ، والطبقات العاملة الكادحة من جهة ، وخضوع وتواطؤ الخديوى توفيق من جهة أخرى ، واستقالة رئيس الوزراء شريف باشا عام

١٨٨٤ لرفضه الخضوع للانجليز بسحب المصريين من السودان قائلا (اذا تركنا السودان ، فالسودان لن يتركنا) .

وكانت الأمور خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر تمثل مأساة حقيقية حاول الاستعمار فى نهايتها أن يصلح بعض ما أفسده وأن يعتمد على صحافة تجمل وجهه أمام الجماهير .

سمح الاستعمار بعودة الشيخ محمد عبده من المنفى بباريس عام ١٨٨٩ بعد أن كانت (العروة الوثقى) قد توقفت ، وتزعم فى مصر حركة اصلاحية اسلامية عبرت عنها جريدة (المنار) التى أسسها على رشيد رضا بعد تسع سنوات أى عام ١٨٩٨ وقد هاجمت الحركة السيطرة السياسية للاقطاعيين ، وهاجمت أيضا رجال الدين المحافظين المرتبطين بهم ... موجهين اليهم الاتهام بتشويه الاسلام ، وتأخير البلاد ... ودعت الى بعث اللغة العربية الفصحى .

ووافقت هذه الحركة هوى قوات الاحتلال البريطانية ، لأنها كانت تسعى الى تكييف الاسلام وفقا للعلاقات الاجتماعية الجديدة ، فصدر قرار بتعيين الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية عام ١٨٩٩ وظل يشغله الى أن توفى عام ١٩٠٥ .

وفى نفس العام الذى سمح فيه للشيخ محمد عبده بالعودة من باريس ١٨٨٩ ظهرت جريدة (المقطم) لأصحابها يعقوب صروف ، وفارس نمر ، وشاهين مكاريوس ، وقد ظهرت لمناصرة الاحتلال البريطانى والدعاية للانجليز .

أعلن ذلك أصحابها صراحة عندما قالوا على صفحاتها (ان الغرض السياسى من تأسيسها معلوم ظاهر ، وهو تأييد للسياسة الانجليزية) .

وكان ظهور هذا الاتجاه علنيا من جانب بعض الصحفيين اللبنانيين ، رغم

المواقف الوطنية للبنانيين وسوريين آخرين سببا لاثارة المشاعر الوطنية بين المصريين الذين كانوا يطالبون بجلاء القوات البريطانية منذ دخلت مصر ويعملون على مقاومة الاحتلال الأجنبى ... ولذا اشتدت النقمة على (المقطم) وأصحابها ، وبدأ المثقفون المصريون يبحثون فى ضرورة اصدار صحيفة مصرية تواجه (المقطم) وتتجاوز (الأهرام) التى كانت لا تزال تحتفظ بحيادها وعدم تورطها فى اتخاذ مواقف وطنية رغم أنها لم تنزلق الى ما انزلقت اليه (المقطم) .

كانت المطالبة بخروج الاحتلال على صفحات الصحف أمرا غير محظور ، وقد نشرت الأهرام تصف الأمة البريطانية بقولها (لا تفى وعدا ، ولا تحفظ عهدا) متمثلة ببيت الشعر الذى يقول :

ولا تمسك بالعهد الذى وعدت الا كما يمسك الماء الغرابيل

وكانت مطالبة الاحتلال بسحب الجيش المصرى من السودان وسكوت مجلس الشورى والجمعية العمومية على ذلك دون معارضة صارخة ، موضع هجوم الصحافة المصرية ونقدها لهما ... مما يظهر أن الصحافة قامت فى ذلك الوقت بدور أكثر ايجابية .

وصدرت فى نفس العام ١٨٨٩ جريدة (المؤيد) حتى أصبحت خلال فترة قصيرة ساحة للتعبير الوطنى والاسلامى معا .

وكان من أبرز كتابها فى بداية عهدها الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وابراهيم المويلحى ومصطفى كامل فى أول نشأته .

كانت (المؤيد) مدرسة تخرج فيها أشهر كتاب هذه الفترة .

كل هذه الأحداث كانت تتم فى عهد ولاية الخديوى توفيق .

ولكن لم تكد تسعينات القرن التاسع عشر تهل حتى نشط مثقفو

البرجوازية الوطنية المصرية بعد وفاة الخديوى توفيق وتعيين ابنه عباس حلمى الثانى الذى حكم مصر فى يناير ١٨٩٢ وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

ولكن المثقفين المصريين لم ينشطوا فى اتجاه عقد الصلة بينهم وبين الجماهير تأثرا بنكسة الاحتلال بعد هزيمة الثورة ... وانما وجهوا اهتمامهم فى الحصول على التحرر الوطنى الى محاولة استغلال التناقضات من جهة ... والى التثقيف والدعاية من جهة أخرى .

وبدأت موجة من الصحف الجديدة مع بداية عهد الخديوى عباس حلمى الثانى .

ظهرت (الهلال) عام ١٨٩٢ .. أصدرها جرجى زيدان البيروتى المولد والذى هاجر الى مصر ، وهو لم يكن صحفيا فحسب ... بل كان أديبا ومؤرخا ... كتب أقدم الكتب فى التاريخ العربى على أساس حديث ... وهو أول من كتب الرواية التاريخية فى العربية ، ورواياته مازالت تقرأ حتى الآن ... وكذلك ظهرت (الهلال) مهتمة بالقضايا الأدبية والتاريخية والاجتماعية ... وهى احدى الصحف النادرة التى مازالت تواصل مسيرتها حتى الآن ما يقرب من قرن كامل ...

وانضمت الهلال بذلك الى (المقتطف) التى أنشأها فى بيروت الدكتور يعقوب صروف وفارس نمر من خريجى الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميريكية فيما بعد) ... وانتقلا بها الى القاهرة عام ١٨٨٤ بعد الاحتلال البريطانى ، حيث انصرف الدكتور يعقوب صروف الى (المقتطف) وفارس نمر الى (المقطم) .

ولم تحتجب (المقتطف) الا عام ١٩٥٢ .

وصدرت أيضا (لسان الحال) جريدة يومية فى الاسكندرية عام ١٨٩٤

لأصحابها اللبنانيين نجيب وأمين حداد ... وقد صدرت بذات الاسم صحيفة فى لبنان عام ١٨٧٧ مازالت تصدر حتى اليوم .

كانت (لسان الحال) من الصحف الوطنية الحرة التى هاجمت السلطان عبد الحميد فطاردها ومنعها من الدخول الى البلاد العثمانية ... ولعل هذا كان سببا من أسباب توقفها ثم صدورها أسبوعية من القاهرة ... وأخيرا عادت الى الاسكندرية مرة أخرى .

والظاهرة الملفتة أن كثيرا من الصحف فى ذلك الوقت كانت تصدر من الاسكندرية ، وكان معظم أصحابها من اللبنانيين .

ظهرت (المشير) عام ١٨٩٤ لصاحبها سليم سركيس اللبنانى الذى كان محررا فى لسان الحال ثم هاجر الى مصر .

والتقت (المشير) مع (لسان الحال) فى مناهضة العثمانيين ، وتوجت عنوانها بأبعة أبيات من الشعر نظمها الأمير شكيب أرسلان اللبنانى وتقول :

وألفيت فيها أمة عربيـــة يرى التحرك فيها أمة الزنج اكرما

وما نقموا منا بنى العرب خلة سوى أن خير الخلق لم يك أعجما

وما أن وصلت الاعداد الأولى من (المشير) الى بيروت حتى أصدرت الحكومة العثمانية أمرا باحراقها ، وأصدرت المحاكم حكما باعدام صاحبها ، وطالبت ولاية بيروت بتسليمه ... ولكن المعتمد البريطانى لورد كرومر رفض ذلك .

انتقلت (المشير) بعد ذلك الى القاهرة ، وأرسل السلطان بعض المجرمين لاغتيال صاحبها سليم سركيس ولكنه نجا ... وظل يواصل إصدار صحيفته الى عام ١٨٩٩ حيث انتقلت الى نيويورك لتصدر من هناك .

ومن الاسكندرية أيضا صدرت (البصير) عام ١٨٩٧ لمؤسسها رشيد

شميل اللبنانى ... وكانت صحيفة وطنية معتدلة ظلت تصدر حتى عام ١٩٣٤ .

والجدير بالملاحظة أن عدد الصحف التى ظهرت خلال التسعينات من ١٨٩٩ حتى ١٩٠٠ بلغت حوالى مائة جريدة ومجلة أسبوعية ، معظمها كانت من الصحف التى تهتم بالقضايا السياسية ... وبلغ بذلك عدد الصحف فى هذه الفترة ما يقرب من ١٦٠ صحيفة .

ويذكر انه قد تم استرداد السودان فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ بعد حرب امتدت أكثر من ثلاث سنوات خاضها الجيش المصرى ، حيث بقى هناك ليعفى قوات الاحتلال البريطانى من خطر وجوده فى مصر ، وليعفيها أيضا من تواجد قوات بريطانية كثيرة فى مصر .

ووقعت خلال هذا العام اتفاقية ١٨٩٩ للحكم الثنائى المصرى البريطانى وهى الاتفاقية التى وقعها بطرس غالى عن مصر ولورد كرومر عن بريطانيا والتى سميت وقتها (الاتفاقية المشئومة) .

وقد صاحب ذلك ظهور (الفازيقة السودانية) أول جريدة رسمية فى السودان مشابهة للوقائع المصرية ... وكان أول ما نشرته هو نصوص اتفاقية ١٨٩٩ .

وأدى ذلك فى مصر الى نهضة اعلامية هائلة ، حيث لم يكن هناك قانون للمطبوعات ولم يكن الاحتلال كما ذكرنا مهتما بما تنشره الصحف ، حيث كانت الحركة السياسية فى حالة انحسار ... وكانت بريطانيا ترحب بكل هجوم على الدولة العثمانية وبقاياها فى مصر .

ورغم وفرة عدد الصحف فان التوزيع لم يكن يتجاوز ثلاثة أو أربعة آلاف نسخة معظمها عن طريق الاشتراكات أو الوكلاء والمحصلين .

لم يكن هناك متعهدون للتوزيع كما هو الحال الآن ... ولذلك كانت تعانى الصحافة من اختلاسات الوكلاء والمحصلين ، الأمر الذى أجبر عددا من الصحف على الاحتجاب .

لم تكن الاعلانات قد أصبحت مصدر الايراد الرئيسى للصحافة ... ولم يكن التوزيع أيضا مدرا للأرباح .... والاعتماد كله كان على الاعانات التى اختلفت مصادرها .

ولذا كانت الصحافة تعانى من الفقر شأنها فى العالم العربى كله ... ولم تكن للصحفيين ضمانات تحول دون الفصل وعدم الحصول على تعويض .

ويغيب التناقض بين فقر الصحافة وكثرة عدد الصحف ، اذا علمنا أن مرتبات المحررين كانت لا تتجاوز ٢٠ جنيها وان أسعار الورق كانت رخيصة ، فضلا عن أن آلات الطباعة كانت يدوية ، وعدد الصفحات لا يزيد على أربع .

وكان للشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) فضل ادخال الطباعة بطريقة الروتاليف (الآلات الرحوية) لأول مرة فى العالم العربى ، ثم تبعته بعد ذلك بقية الصحف .

كانت هذه هى حال الصحافة فى مصر خلال تسعينات القرن الماضى ، حينما ظهرت جريدة (اللواء) للزعيم مصطفى كامل عام ١٩٠٠ مستهلة القرن العشرين بتطور سياسى ومهنى ، يفتح صفحة جديدة فى قصة الصحافة المصرية .

ظهور الصحافة الحزبية مع القرن العشرين !

(لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا)

مصطفى كامل

سجل ظهور صحيفة (اللواء) للزعيم مصطفى كامل عام ١٩٠٠ مرور قرن كامل على ظهور الصحافة المصرية منذ صدرت (التنبيه) فى عهد الحملة الفرنسية ... وكانت (اللواء) بداية الصحف الملتزمة حزبيا ، بعد اختفاء صحيفة (الطائف) التى أصدرها عبد الله النديم ... وقد ظهرت (اللواء) الى جانب الصحف المستقلة التى كانت تصدر وسبق أن أشرنا اليها مثل الأهرام والمقطم وغيرهما .

ومصطفى كامل عندما أصدر جريدة (اللواء) كان محاميا فى السادسة والعشرين من عمره اذ ولد عام ١٨٧٤ وكان شابا ملتهب الوطنية ، متحمسا فى كتاباته ضد الاستعمار البريطانى ، ترأس أول حزب سياسى فى مصر بعد الاحتلال .

وأنهى مصطفى كامل فترة الاحباط التى أعقبت الاحتلال البريطانى ، وأشاعت اليأس فى نفوس المصريين ، وخلقت فجوة بين المثقفين والكادحين .

لم يترافع المحامى مصطفى كامل الا فى قضية مصر ... ترافع فى الداخل فألهب حماس الشعب وجدد طاقته وإصراره ... وترافع فى الخارج ... وفى فرنسا وألمانيا وتركيا وبريطانيا حيث قابل جلادستون رئيس وزراء بريطانيا ، وقابل رئيس الأحرار وزعيم المعارضة وتبادل معه الرسائل التى اعترف فيها زعيم المعارضة البريطانى بعدم شرعية الاحتلال البريطانى وأعطى وعدا بالجلاء عن

مصر اذا آلت الى حزبه .

كان مصطفى كامل يعتمد على الكلمة المنطوقة حيث كان خطيبا مفوها ... وكان يعتمد على الكلمة المكتوبة فى مقالات نشرها فى الصحف الغربية فأحيت اهتمام الغرب بالقضية الوطنية المصرية ... ومقالات أخرى نشرها فى الصحف المصرية .

وقد ألف مصطفى كامل الحزب الوطنى بعد إصداره جريدة (اللواء) ـ الصحيفة سبقت الحزب ـ وصحيفتين أخريين إحداهما بالفرنسية والأخرى بالانجليزية لم يقدر لهما البقاء طويلا .

كانت (اللواء) ملتزمة بأفكار الحزب الوطنى وآرائه ، وهى أفكار كانت تدعو الى استمرار تبعية مصر للدولة العثمانية فى وقت كانت فيه فى حالة تفسخ وانهيار ... وتنادى بجامعة اسلامية دون وجود أى تفكير فى جامعة عربية ... وتعلن شعار (لا مفاوضة الا بعد الجلاء) وهو فى مضمونه شعار غير قابل للتحقيق فى وقت لم يكن فيه مصطفى كامل داعيا الى الثورة .

وكان مصطفى كامل يساند فى مجلة (اللواء) الخديوى عباس حلمى الثانى الذى ولى مصر وهو فى سن الشباب اذ كان من عمر مصطفى كامل تماما ، فقد أهل عليه القرن العشرين وهو فى السادسة والعشرين من عمره أيضا .

وقف مصطفى كامل فى (اللواء) الى جانب الخديوى فى جميع منازعاته وخلافاته مع اللورد كرومر ، وكان الخديوى عباس حلمى الثانى مهتما بالجيش المصرى قائلا (إنه الأداة الوحيدة القادرة على ضمان الحريات الوطنية) .

وجد حادث غير من موقف الخديوى عباس ، عندما انتهز فرصة سفر اللورد كرومر الى انجلترا وعين محمد ماهر باشا وكيلا لنظارة الحربية ، واعتبر

ذلك بداية للمتاعب اذ أخذ ماهر باشا يحدد سلطة كتشنر سردار الجيش ، ورافق الخديوى فى زيارة تفتيشية على حدود مصر الجنوبية حيث أكثر الخديوى من انتقاد العيوب وخاصة التى لمسها فى تصرفات الضباط البريطانيين قائلا للجنرال كتشنر عقب استعراض فى وادى حلفا (انه من العار أن يكون الجيش المصرى على هذه الدرجة من عدم الكفاءة) .

وقدم كتشنر استقالته وأرسل الى كرومر برقية بما حدث ، فأصر كرومر على أن ينقل الخديوى محمد ماهر باشا من وزارة الحربية ، وأن يعتذر إلى السردار فى خطاب رسمى نشر فى جريدة (الوقائع المصرية) وفيه اشادة بالضباط البريطانيين .

كان هذا الحدث نقطة تحول فى تاريخ الجيش ... ونقطة تحول فى موقف الخديوى عباس الذى خضع بعد ذلك للنفوذ البريطانى ... وكان نقطة تحول أخيرا فى موقف الحركة الوطنية التى تحولت عن مساندة الخديوى .

تحددت المواقف وظهرت بعض الصحف فى خدمة الخديوى عباس باشا مثل مجلة فكاهية كانت تسمى (حمارة منيتى) تخصصت فى سب الشيخ محمد عبده لأنه كان علىَّ خلاف مع الخديوى ... وبلغت فى ذلك حدا ملحوظا من الاسفاف .

وظهر أثر ذلك فى جريدة (اللواء) التى توقفت عن تأييد الخديوى ... وزادت من حملتها ضد الاستعمار والاحتلال البريطانى حتى بلغ الأمر ذروته عقب حادث دنشواى عام ١٩٠٦ الذى أعدم فيه عدد من الفلاحين المصريين بدعوى قتلهم لضابط بريطانى كان يصطاد مع مجموعة من زملائه فى القرية .

يذكر أن مصطفى كامل خريج جامعة تولوز كان قد قدم عريضة مشهورة الى البرلمان الفرنسى ، ووجد ذلك تجاوبا شديدا بين الجماهير وبين ضباط الجيش أيضا ... فأرسل ٣٢ ضابطا من حامية سواكن برقية الى مصطفى كامل

قالوا له فيها (ان قلمك الحق أمضى من سيوفنا ، وحججك القوية أمضى من رصاصنا) ... وكان أخوه على فهمى كامل أحد ضباط الحامية .

ولكن مصطفى كامل لم يدر بخلده أن يكون عرابيا آخر ... فقد كانت حركته بعيدة عن الارتباط بالجيش بعدا كبيرا ، ولذا فقد أرسل اليهم ردا نشرته (اللواء) قال فيه (من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا وأنا لا أود أن يدخل ضباط الجيش فى حركتنا السياسية دخولا ظاهرا لأن هذا يضر بالمسألة ضررا بليغا حيث يجد الاحتلال مسوغا لخلق التهم الثورية بمصر وغير ذلك مما لا يخفى عليكم) .

هكذا كان مصطفى كامل حريصا على عدم اثارة شبهة اتصاله بالجيش علنا ... وعدم اقدامه على عمل ثورى ... ولذا كان تركيزه شديدا على التثقيف والتنوير ... منتهزا فرصة الموقف الليبرالى الذى انتهجه اللورد كرومر من ناحية اعطائه حرية نسبية للصحافة مقتنعا بأن وضع الصمام على المرجل يفجره ، أما ترك البخار طليقا فانه يجعل سلامة المرجل مضمونة .

ولكن حادث دنشواى الذى اهتزت له مصر جعل لهجة الصحف تزداد عنفا وشدة ، وتنتقل الى مرحلة من الهجوم السافر على قوات الاحتلال ، الأمر الذى جعل اللورد كرومر يوعز الى وزير العدل بوضع قانون للمطبوعات للحد من حرية الصحافة .

ولكن ... ما أن فقدت الصحافة حريتها النسبية التى نعمت بها خلال السنوات السابقة حتى عبر الشعب عن موقفه بمظاهرات سلمية جماعية أدت الى استقالة لورد كرومر واستبداله بالسير الدون جورست .

وكان القدر قد لحق بالزعيم مصطفى كامل فى فبراير ١٩٠٨ وهو بعد فى الرابعة والثلاثين من عمره وخلفه الزعيم محمد فريد .

واستمرت جريدة (اللواء) تواصل نضالها بمقالات ملتهبة يكتبها محمد فريد أو رئيس تحريرها الشيخ عبد العزيز جاويش أيضا .

وكان الخديوى قد بلغ فى ذلك الوقت حدا من التهادن المقيت حيث أصبح يشيد بالاحتلال كما ظهر فى حديث له مع مندوب جريدة الديلى تلجراف اذ قال (ان الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر) وأنه ليرحب بالتعاون مع المعتمد البريطانى فى مصر .

وكانت المظاهرات التى دفعت اللورد كرومر الى الاستقالة مازالت تشعل الحركة الوطنية التى كانت تطلب الجلاء والدستور معا فى عرائض كان يطالب الحزب الوطنى الجماهير بتوقيعها حتى وصل عدد الموقعين ٦٠,٠٠٠ من الأعيان والتجار والمحامين والمهندسين والأطباء ورجال الفكر والطلبة والعمال والفلاحين والسيدات والآنسات .

كانت صورة هذه العرائض تنشر فى (اللواء) الى جانب مقالات تحث أعضاء مجلس شورى القوانين على المطالبة بتحقيق رغبة الأمة فى الحصول على الدستور وانشاء مجلس نيابى أصيل ... أو الاضراب عن حضور الجلسات والاستقالة .

وقد ناقش المجلس هذه الدعوة وقرر تأجيل النظر فى الموضوع وتحمس لدعوة الحزب الوطنى عشرة من النواب سمتهم جريدة اللواء (العشرة الكرام) .

ولكن إصرار محمد فريد ومقالاته فى اللواء وخطبه فى المجتمع جعلت من الصعب على أى عضو من أعضاء مجلس شورى القوانين أن يواجه أهله أو مؤيديه ، فاجتمع المجلس يوم أول ديسمبر ١٩٠٨ وأصدر بالاجماع قرارا يدعو فيه حكومة (الجناب العالى) أن تبادر باعلان حق الأمة فى مشاركة الحكومة فى تقرير أمورها ، على أن يكون رأى ممثلها قاطعا فى هذه الأمور باستثناء ما

يتصل بحقوق الأجانب والدولة العثمانية .

لم تستجب الحكومة لهذا القرار ... ولكنه كان خطوة كبيرة فى طريق النضال الديموقراطى الذى لعبت فيه الصحافة دورا بارزا .

كانت الجماهير تنتظر (اللواء) بما تحمله من مقالات تلهب حماستهم ، وتحدد حركتهم . فقد كتب محمد فريد على سبيل المثال مقالا فى جريدة (اللواء) يندد فيه باستعراض الخديوى للجنود البريطانيين تحت العلم البريطانى قائلا (إننا نكره له أشد الكراهية أن يقف تحت الراية الانجليزية وليذكر سموه كم لقينا من أمة هذه الراية ... ثم ليذكر دنشواى وما نابنا فيها من الآلام) ...

وكان أن تراجع الخديوى فامتنع بعد ذلك عن مشاهدة العرض تحت العلم البريطانى وانتقل مع وزرائه الى شرفة قصر عابدين .

وكانت عودة العمل بقانون المطبوعات الصادر فى ١٨٨١ موضع معارضة شديدة حيث تظاهر ضده عدد كبير بلغ عشرة آلاف قدم بعضهم للمحاكمة وحكم عليهم بالحبس عدة شهور .

واستخدمت الحكومة هذا القانون لانذار جريدة (اللواء) عدة مرات ، وقدمت الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحريرها للمحاكمة لمقال كتبه فى ذكرى دنشواى فقبض عليه وسجن ثلاثة أشهر .

ثم سنت الحكومة قانونا فى يوليو ١٩٠٩ يبيح للحكومة والمديرين والعمد حق نفى المواطنين الى الواحات الداخلة ، واستغلت هذا القانون لنفى كثير من الأحرار .

وظهرت قضية سياسية أخرى هى مد امتياز قناة السويس ، ولعبت (اللواء) دورا كبيرا فى تعبئة الجماهير ضد هذا الامتياز .

وفى أثناء نظر مشروع مد امتياز القنال داخل الجمعية العمومية اغتال

ابراهيم الوردانى وهو من شباب الحزب الوطنى ناظر النظار أو رئيس الوزراء بطرس باشا غالى أثناء المناقشة فكان ذلك أول اغتيال سياسى فى تاريخ مصر الحديث .

وكانت دوافع القتل حسب أقوال ابراهيم الوردانى هى توقيع بطرس باشا غالى على اتفاقية السودان عام ١٨٩٩ ورياسته للمحكمة الخاصة فى قضية دنشواى ، واعادة قانون المطبوعات ثم السعى فى تنفيذ مشروع مد امتياز قناة السويس .

ومن المؤسف أن اغتيال بطرس باشا غالى قد انعكس فى صحافة الحزب الوطنى مقالات تشيع الفتنة والطائفية فكتب الشيخ عبد العزيز جاويش مقالات تهاجم الأقباط .

ولم تنجح صحافة هذه الفترة فى رأب الصدع الطائفى الذى حدث بعد مصرع بطرس باشا غالى وعقد الأقباط لمؤتمر فى أسيوط والمسلمين لمؤتمر فى مصر الجديدة رغم حرص العقلاء على إطفاء نيران الطائفية ومشاركة بعض المسلمين فى مؤتمر الأقباط وبعض الأقباط فى مؤتمر المسلمين ... وقد لعبت الصحافة الانجليزية التى كانت تصدر فى مصر مثل (الجازيت) دور الاثارة فى هذه المسألة الحساسة التى ظلت موجودة حتى قامت ثورة ١٩١٩ .

وكان لهذا الحدث ردود فعل عنيفة فقامت الوزارة الجديدة التى رأسها محمد سعيد باشا باضطهاد الحريات ، فعطلت الصحف وفى مقدمتها صحف الحزب الوطنى (اللواء) و (العلم) التى كان قد أصدرها محمد فريد بعد أن كان قد تخلى عن اللواء بعد خلافه مع على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ... وأحالت تهم الصحافة الى محكمة الجنايات ... بل ومنعت تمثيل الروايات التى ترد فيها ألفاظ الحرية والدستور والاستقلال .

ومع ذلك فان وزارة محمد سعيد باشا التى وليت الحكم أجلت مشروع

امتياز قناة السويس الى عام ٢٠٠٨ حسب طلب الحكومات الأجنبية لمدة أسبوعين رفضته الجمعية بعدهما ... فكان فى ذلك انتصارا للصحافة وللمجلس الشورى الأمر الذى كان له أعظم الأثر فى رفع معنويات الشعب .

ولكن محمد فريد زعيم الحزب الوطنى وخليفة مصطفى كامل تعرض بعد ذلك لملاحقات شديدة أدخلته السجن مرة بعد أخرى حتى هاجر من مصر فى ٢٦ مارس ١٩١٢ ليعود إليها بعد أن فارق الحياة عام ١٩٢٠ بعد فترة نضال طويلة وقاسية بالخارج .

ولم تكن صحافة الحزب الوطنى التى لاحقتها اجراءات الحكومة هى الوحيدة الموجودة فى الساحة .

يمكن القول أن هذه المرحلة كانت بداية مرحلة الصحافة الحزبية التى تعتمد على المقالات دون اهتمام كبير بالأخبار ، حيث تعددت الأحزاب وعبرت عن نفسها بالصحف ، وهو ما لم يكن معروفا فى مصر ... وما استحدث على سياستها الداخلية بعدد دخول الاحتلال البريطانى .

كانت (المؤيد) التى سبقت ظهور (اللواء) ويرأس تحريرها الشيخ على يوسف هى لسان حال (حزب الاصلاح) الذى كان يسير على النهج الدستورى للاصلاح ، وقد جعلت هذه المجلة مسئولية فتح الباب والمجال لعدد من كبار الكتاب كما ذكرنا ومنهم مصطفى كامل الذى كتب فيها فى نشأته الأولى .

ويلاحظ أن الشيخ على يوسف كان ركنا من أركان الصحافة فى ذلك الوقت ، فهو الى جانب تطويره لأسلوب الكتابة من السجع والتصنع والتعمية ، ليصبح سهلا وقريبا الى الأفهام ، كان أول من أدخل الروتاتيف وفن الطباعة الحديثة فى مصر ... ولذا يمكن اعتبار الشيخ على يوسف زعيم مدرسة حديثة فى الصحافة ، وصاحب طريقة جديدة فى الكتابة الصحفية .

وظهرت (الجريدة) عام ١٩٠٨ لسان حال حزب (الأمة) وكان يحررها العالم الفيلسوف أحمد لطفى السيد الذى انضم اليه بعض المفكرين والمثقفين وأعيان الريف والحضر من الأثرياء .

وقد اشتهر احمد لطفى السيد بالأسلوب الدقيق المحكم الذى يمتاز بالأصالة العلمية والأناقة الرصينة القريبة الى الأذهان ... وكان داعية من دعاة التقدم حتى أطلق عليه بحق لقب (أستاذ الجيل) ... وقد تخرج على يديه وفى جريدته جيل من الكتاب منهم الدكتور محمد حسين هيكل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق وعبد القادرة حمزه وابراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكرى وتوفيق دياب وسلامة موسى ومنصور فهمى ومحمود عزمى وعزيز خانكى .

ويذكر لأحمد لطفى السيد قوله (إن أول معنى للقومية المصرية تحديد الوطنية المصرية (نريد الوطن المصرى) ... وكانت دعوته موضع اقبال الجماهير لأن (اللواء) و (المؤيد) كانت تدعو لاخراج الانجليز مع البقاء داخل السلطنة العثمانية ... وكانت تنشر رسالة يومية تقريبا من الاستانة .

ويشخص أحمد لطفى السيد حالة مصر فى تلك الفترة بهذه الكلمات (كانت الحرية عندنا فى مصر الى آخر عهد اللورد كرومر وبعده بقليل محترمة ، ظاهرة الأثر ، شائعة فى جميع الطبقات ، حتى لقد كان يعلم من بعض موظفى الحكومة أنه ضد الاحتلال ، يصرح برأيه فى المجالس ، وينقل عنه هذا ومع ذلك كان له من احترام ولاة الأمر لحرية الرأى ما كان يحميه من النتائج الطبيعية لتصريحاته ، ناهيك بأولئك الذين لم يكن لهم وظيفة فى الحكومة يخشون العزل منها ، أولئك كان لهم حرية الرأى ما يجاوز الحدود الوصفية لتلك الحرية) .

ولاشك أن هذه الكلمات تعبر عن حرية الصحافة فى تلك المرحلة وما

كانت تنشره من آراء دون قيود .

ومن عباءة (الجريدة) أصدر عبد القادر حمزه صحيفة (الأهالى) فى الاسكندرية فى أكتوبر ١٩١٠ تلبية لرغبة أعيان الثغر الذين اعتادوا أن تصدر صحف كثيرة من مدينتهم فى السابق ... وكان عبد القادر حمزه قد عمل فى (الجريدة) ثلاث سنوات تقريبا .

وشهدت هذه الفترة الحرب التركية الايطالية عام ١٩١١ وكان لهذه الحرب صدى فى الصحف المصرية وخاصة (الأهالى) . وكانت جميع الصحف المصرية تأخذ جانب تركيا ضد ايطاليا وتحيى شعب طرابلس المجاهد ... ومن ذلك ما نشرته الأهالى فى عدد أول نوفمبر ١٩١١ تحت عنوان (عاش الطرابلسيون) .

وكانت هناك صحف أخرى مثل « الدستور » ، « ومصر الفتاة » التى أصدرها على فهمى كامل بعد خلافه مع محمد فريد حول ترشيحه لمنصب رئاسة الحزب الوطنى بعد وفاة شقيقه مصطفى كامل ... وصحيفة (المؤيد) التى أصدرها حافظ عوض مؤيدة للخديوى ، (وترق الاسلام) و (الهلال العثمانى) وغيرها .

ويمكن القول بأن العمد الثلاث لهذه الفترة التى بدأت مع القرن العشرين وسبقت الحرب العالمية الأولى كانت المؤيد واللواء والجريدة باعتبارها صحفا حزبية رئيسية ... ويذكر سلامة موسى ان الآفاق السياسية والاجتماعية فى المجتمع المصرى كانت قاصرة خلال هذه الفترة على التيارات الجديدة التى أوجدها الشيخ محمد عبده فى ضرورة تعميم الروح العصرية فى الأزهر ، وفى دعوة قاسم أمين الى تحرير المرأة وإلغاء الحجاب ، تم فى تنبيه الرأى العام لمكافحة الاحتلال بوساطة الحزب الوطنى ومصطفى كامل .

وهكذا بقيت الصحافة تعمل على تنوير الجماهير رغم قانون المطبوعات واجراءات حكومة محمد سعيد باشا .

وفتحت الحرب العالمية الأولى صفحة جديدة فى تاريخ الصحافة المصرية .

الصحافة بين رقابة الحرب .. وصحوة الثورة

(يجب أن تقتطع سنوات الأحكام العرفية
من عمر الصحافة كأنهما لم تعش فيها ،
بل يجب أن تقتطع من عمرنا نحن رجال
الذهن)

سلامة موسى

انتهت المرحلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، والصحافة تنعم بقدر وافر من الحرية أحيانا ، ثم تحيطها قيود قانون المطبوعات أحيانا أخرى ... يسجل أحمد لطفى السيد تقديره لما توفر فيها من حريات كما ذكرنا ... وتصدمنا بعض الاجراءات التى اتخذت فيها ضد الصحفيين .

وكان الاحتلال البريطانى يتعامل مع الصحافة بذكاء ... يجذب اليه الصحف المستعدة للسير فى ركابه ... ويحاصر الصحف الوطنية .

وغالبا ما كان أصحاب النوع الأول من غير المصريين وفى ذلك يقول سلامة موسى (نحن نرى عقب الثورة العرابية أن الحكومة تدفع تعويضا ضخما لأصحاب جريدة غير مصرية لأن الثائرين كسروا المطبعة لانضمام هذه الجريدة الى الخديوى ، وكان هذا فاتحة السير والخير لتلك الجريدة ، ثم نجد الانجليز بعد ذلك يسندون بنفوذهم جريدة المقطم التى أصبح أصحابها بهذا السند القوى من أغنياء القطر المعدودين) .

ولم تكن هذه الحالة الميسورة منطبقة على الصحف الوطنية ، بما فيها تلك الصادرة عن الأحزاب المختلفة ... فقد كانت جميعا تعانى من الضيق المالى ... ليس لأن العاملين فيها أقل كفاءة أو أنها لم تسجل أرقاما مرتفعة فى التوزيع ... ولكن لأنها كانت تعيش قضية الوطن بكل ما فيها من تضحيات ... ولم تكن

تتلقى من الحكومة اعلانات .

الصحف التى سايرت الاستعمار ومعظم أصحابها من غير المصريين لم تربط نفسها بحزب من الأحزاب ، ولم يغضب أصحابها عندما يجب الغضب ، ولم يبالوا بمصلحة مصر عندما تتعرض للضياع طالما هم يربحون .

ومع ذلك كانت الصحف الوطنية والحزبية أكثر توزيعا وانتشارا وجذبا للكتاب والأدباء ... رغم انهم كانوا يعيشون فى ضائقة مالية ملحوظة .

ولم يكن الصحفى حتى ذلك العهد قد أخذ وضعه الطبيعى فى المجتمع باعتباره موجها ومرشدا للرأى العام ... وحادث الشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) عندما تزوج ابنة الشيخ السادات فأقام الأب دعوى عليه بطلب الغاء الزواج بدعوى أنه صحفى ، وان الصحافة محتقرة ، ولا يليق بمن تنسب الى (الأشراف) مثل ابنته أن تصاهره ، وحكمت المحكمة الشرعية بالغاء الزواج على هذا الأساس ، أى أن الصحافة مهنة (غير شريفة) ومحترفها لا يليق لمصاهرة أسرة (شريفة) !

ويقول صلامة موسى أنه خرج من صحيفة (اللواء) لأنها عجزت عن دفع مرتبه الشهرى وقدره سبعة جنيهات) !

وازدادت ضائقة الصحافة الوطنية بعد أن شعر الاستعمار البريطانى بخطرها خلال المعارك التى خاضتها من أجل الجلاء والدستور ، وتحرر المرأة ، وعدم مد امتياز قناة السويس وغير ذلك من القضايا الوطنية والاجتماعية ، مما جعله يطلق عليها قانون المطبوعات الذى حول قضايا النشر الى محاكم الجنايات ، ومارس سلطة الانذار والتعطيل والالغاء للصحف ، والحبس للصحفيين ... الأمر الذى أعاد الصحافة بشكل أو آخر الى ما كانت عليه فى العهود السابقة عهود الاستبداد وغيبة الأحزاب والسلطة المطلقة للخديوى وحكومته .

واكتملت حلقة الحصار حول الصحافة عندما قامت الحرب العالمية الأولى وأعلنت الحماية البريطانية على مصر يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وزالت السيادة التركية ، وعزل الخديوى عباس الثانى يوم ١٩ ديسمبر وهو فى زيارة لتركيا ، وعين بدلا منه السلطان حسين كامل فى نفس اليوم .

وأجل انعقاد الجمعية التشريعية على مراحل من يوم ٢٩ ديسمبر ١٩١٤ إلى فبراير ١٩١٥ ثم الى ١٥ ابريل ، ثم أول نوفمبر ، وأخيرا أجلت الى أجل غير مسمى بمرسوم صدر فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٥ .

لم تنعقد الجمعية التشريعية مطلقا وظلت البلاد محرومة من أية هيئة نيابية عشرة أعوام كاملة تقريبا الى أن أعلن دستور ١٩٢٣ .

كان مفروضا على الصحف أن تنشر قرار اعلان الحماية الذى نص على أنه (رأت حكومة جلالته أن أفضل وسيلة لقيام بريطانيا العظمى بالمسئولية التى عليها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية اعلانا صريحا ، وأن تكون حكومة البلاد تحت هذه الحماية بعد أمير من أمراء العائلة الخديوية طبقا لنظام وراثى يقرر فيما بعد) ... ولكن صحيفة (الشعب) التى كان يصدرها أمين الرافعى قررت الاحتجاب يوم ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ حتى لا تنشر اعلان الحماية المشئوم والبلاغات التى تستتبعها الحماية .

وكان هذا الاحتجاب ــ كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن ثورة ١٩١٩ ــ هو أول احتجاج من مصر على الحماية البريطانية ، وقد وقع فى الوقت الذى بلغت فيه صحيفة (الشعب) ذروتها من حيث الانتشار والرواج والمكانة الصحفية اذ كانت أوسع الجرائد انتشارا حسب قوله .

وصحب اعلان الحماية والأحكام العرفية اعتقال أو نفى عدد كبير من قادة الحركة الوطنية وخاصة المنتمين الى الحزب الوطنى ... وانعكس ذلك على الصحافة .

وكما أغلقت اللواء والعلم عام ١٩٠٩ لحقتها المؤيد ثم الدستور ، والشعب ، وأخيرا الجريدة التى أغلقت أبوابها عام ١٩١٥ لأنها لم تتحمل وطأة الأحكام العرفية .

وبقيت بعض الصحف (غير الحزبية) تواصل الصدور ، عدد منها كان يعيش فى حماية الاحتلال وغالبا لم يكن أصحابها من المصريين ، وعدد آخر مثل الأهالى لصاحبها عبد القادر حمزه واصلت الصدور .

ويمكن القول ان ازدهار عهد الصحف الحزبية قد انتهى باغلاق الجريدة .

ولكن هذا الموقف لم يؤد الى نكسة كاملة للحركة الشعبية المعادية للاستعمار ، فقد ظلت هناك علامات معبرة عن رفض الشعب ... فعندما قرر السلطان حسين زيارة مدرسة الحقوق يوم ١٨ فبراير ١٩١٥ بعد شهرين من ولايته قرر طلبة المدرسة الامتناع عن الحضور فى اليوم المحدد ... ووجد السلطان المدرسة تكاد تكون خالية من الطلبة ... الأمر الذى جعل هذا الامتناع أشبه بالاضراب الصامت .

كانت نتيجة ذلك فصل ٥٤ طالبا وحرمان عدد آخر من الامتحان ... ثم صدر قرار بالعفو عنهم عندما تصاعد السخط ... ووصل الى حد محاولة الاعتداء على السلطان حسين مرتين ... الأولى فى القاهرة خلال ابريل ١٩١٥ ، والثانية فى يوليو من نفس العام بالاسكندرية .

وحدثت مظاهرة أمام سراى عابدين يوم ٢٩ يناير ١٩١٦ من رجال الرديف الذين جمعوا قسرا للعودة لخدمة الجيش فى ظروف شديدة القسوة ، ووقع صدام بينهم وبين البوليس سقط فيه عدد من الجرحى .

وكان السلطان حسين فى بداية عهده على صلة طيبة بدار الحماية والمستشارين البريطانيين فى الحكومة المصرية ، غير أنه لم يلبث أن ظهرت فى أحاديثه ملاحظات على تصرفاتهم ... وعلل البعض ذلك بضعف شخصية

السير آرثر ماكماهون الذى عين مندوبا ساميا بريطانيا خلفا للورد كتشنر الذى اعلنت الحماية على مصر وهو فى لندن وعين وزيرا لحربية بريطانيا .

ولكن الجماهير لم تتفاعل مع موقف السلطة الا بقدر ما كانت تعانى منه ... فقد صحب الحرب والأحكام العرفية اعلان السخرة بتوجيه الفلاحين والعمال لتعبيد الطرق وشق الخنادق فى خدمة الجنود البريطانيين الذين تدفقوا على مصر خلال الحرب .

وتفجرت مآسى العذاب بعد تسخير ما يقرب من مليون فلاح ، لم يكن يقدم لهم الطعام المناسب أو يبنى لهم ما يأويهم من لفح الحر أو قر الشتاء .

ولم يعد للصحافة صوت مسموع بعد أن فرضت عليها الرقابة العسكرية ، ومنعت المظاهرات وحظرت الاجتماعات .

واضطرت الصحف التى واصلت الصدور الى ممالأة قوات الاحتلال ... فجريدة (الأهالى) - كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه فى كتابه عن صاحبها عبد القادر حمزة - (شقين أولهما مساندة السلطة الخديوية ، وثانيهما مهادنة الاحتلال ... وبقيت على ذلك النمط حتى قامت الثورة الكبرى فى سنة ١٩١٩ فانقلبت سياسة الأهالى رأسا على عقب ومنحتها هذه الثورة قوة على مواجهة الانجليز والمطالبة الملحة بالاستقلال والدستور حتى نالتهما الأمة نتيجة لكل هذه الظروف) .

هذه صورة معبرة عن الصحف المصرية خلال الحرب والأحكام العرفية ... صحف تصدر دون أن تجرؤ على كلمة نقد لا تقبلها سلطات الاحتلال ، وهى تكظم غيظها وتبلع غضبها بصبر وعلى أمل فى ثورة الشعب ... أو تغلق أبوابها كما فعلت المؤيد والشعب والجريدة وغيرها .

ومن الغريب أنه كان فى الوقت المحرم فيه على الصحف المصرية نشر أى

خبر أو مقال معارض للاحتلال وتصرفاته ، فان بعض الصحف البريطانية لم تكن تتردد فى مهاجمة تصرفات الاحتلال ، ومن ذلك ما نشرته جريدة (رائد العمال) البريطانية يوم ٣ أبريل ١٩١٩ واصفة المظالم التى دفعت الشعب للثورة كما نقلها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن ثورة ١٩١٩ .

قالت الصحيفة البريطانية (وضع نظام للتطوع ظهرت عدم كفايته فصدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بالاكراه ، وطريقته أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظروا رجوع الفلاحين الى منازلهم فى الغروب ، فيحدقون بهم كالأنعام ، وينتقون خيرهم للخدمة ، فاذا رفض أحدهم هذا « التطوع الاجبارى » جلد حتى الاقرار بالقبول) .

وكتب المستر روبرت ستن العضو بالبرلمان البريطانى مقالا فى مجلة (الكونتمبرارى ريفيو فى مايو ١٩١٩ ونقله المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أيضا مشيرا إلى أسباب الثورة ، والى مقال آخر نشرته مس درهام فى جريدة (الديلى نيوز) يوم ٢ أبريل ١٩١٩ قالت فيه :

(أقمت فى مصر من نوفمبر ١٩١٥ الى ابريل ١٩١٦ وانى أؤيد الرأى الذى يقول ان هذا الاضطراب يرجع الى سوء معاملتنا للمصريين ، وقد ارتكب ولاة الأمور فى مصر أسوأ الأخطاء اذ أتوا بجنود من المستعمرات الى البلاد المصرية من غير أن يذكروا لهم شيئا عن السكان الذين سيعيشون بين ظهرانيهم ، وقد بلغ من جهل هؤلاء الجنود أن كانوا يظنون ان مصر بلاد انجليزية وان المصريين قوم دخلاء ، ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا الى هذه الديار) !

هكذا كانت الصحف البريطانية أكثر حرية من الصحف المصرية فى التعبير عن آرائها المضادة للاحتلال ... الأمر الذى يدل على أن الاستعمار يزن بميزانين ، ويكيل بكيلين ... ديموقراطية فى بلاده ... وجور وظلم فى البلاد

التى يحتلها .

ولكن التطور الذى فرضته ارهاصات ثورة الشعب على الصحافة ... كان له أثره على الزعماء الوطنيين أيضا .. بل على رئيس الوزراء حسين باشا رشدى .

سعد زغلول على سبيل المثال كان وزير العدل الذى لجأ اليه كرومر لاعادة اصدار قانون المطبوعات ، وكان فى المناقشات التى دارت فى الجمعية التشريعية عام ١٩١١ لمد امتياز قناة السويس يؤيد بطرس باشا غالى عندما وجهت إليه رصاصات ابراهيم الوردانى ... ولكنه عندما لمس اصرار الشعب على التحرر من الاستعمار كان أول المبادرين بتأليف الوفد المصرى فى نوفمبر ١٩١٤ للمطالبة بالاستقلال التام وطلب السفر الى انجلترا لعرض قضية مصر ... ولما رفض السير ونجت المعتمد البريطانى ذلك لم يتوقف سعد عن الخطابة كلما سنحت الفرصة مهاجما الحماية والاحتلال حتى التهبت النفوس وأدت مواقف بريطانيا الى اعتقال سعد زغلول وثلاثة من زملائه محمد محمود وحمد الباسل واسماعيل صدقى يوم ٨ مارس ١٩١٩ حيث نفوا الى مالطة ... وكانت هذه بداية الثورة .

أما حسين رشدى باشا رئيس الوزراء فقد كان مؤيدا لسفر الوفد ، وطلب من السلطان أحمد فؤاد الذى كان قد ارتقى عرش مصر يوم ٩ أكتوبر ١٩١٧ بعد وفاة السلطان حسين ــ لم يكن قد أصبح ملكا بعد ــ السفر مع عدلى باشا الى لندن أثناء سفر الوفد ... ولكن الحكومة البريطانية ماطلت مما دفعه الى تقديم استقالة الوزارة يوم أول مارس ١٩١٩ .

واشتعلت الثورة ... وشملت أقاليم مصر ومدنها ... وفشلت حملات قمعها .. ولم ينشر من أخبارها الا بيانات قوات الاحتلال .

ومن هنا انتشرت فى مصر ظاهرة المطبوعات والصحافة السرية التى كانت

تحمل فى عنف على سياسة الاحتلال والسراى والوزارة التى شكلها محمد سعيد باشا يوم ٢١ مايو ١٩١٩ بعد استقالة حسين باشا رشدى وبقاء مصر بلا وزارة ... ومعروف انه كان هناك خلاف بين سعد زغلول ومحمد سعيد اذ استقال سعد زغلول من وزارة سعيد باشا الأولى من ١٩١٠ الى ١٩١٤ وأصبح زعيما من زعماء المعارضة فى الجمعية التشريعية .

ظهرت الصحافة السرية تمثل الهيئات والطوائف المختلفة وجميعها تهاجم البريطانيين والاحتلال ، وتطبع فى مطابع سرية ... اذ كانت عيون البوليس تصل الى كافة المطابع العلنية ومطابع الصحف ... فلا تطبع كلمة إلا بعد الموافقة عليها .

ولذا لجأ الوطنيون الى المطابع السرية التى تقام فى حماية الشعب ... بعيدا عن عيون الحماية البريطانية .

كانت جريدة الطلبة تحمل اسم (المصرى الحر) ... وكانت هناك جرائد سرية لفئات أخرى ينتظرها الناس فى لهفة لانها تعبر عن آرائهم وأفكارهم وطموحاتهم .

وبدأت الصحافة السرية تلعب دورا متزايدا فى التأثير على الجماهير ... يتناقل الناس أخبارها ، ويرددون شعاراتها ، ويلتفون حول أفكارها ، ويؤكدون بها استمرارية الثورة .

وكان لهذه الصحافة السرية تأثير على الصحافة العلنية ... اذ كانت تشعر الصحفيين الوطنيين بأن رسالة الصحافة فى خدمة الشعب والوطن مستمرة حتى ولو لم تتح لها فرصة العلانية ... وكانت تشعر الصحفيين الذين باعوا أنفسهم للاحتلال ولم يحسنوا تقدير دورهم ان الأرض تهتز تحتهم وأن أسلوبهم الضحل فى النشر لا يمكن أن يدوم ...

وهناك أمثلة كثيرة على تفاهة ما كانت تنشره صحافة ذلك العهد .

وفى ظل هذه الظروف التى قصفت فيها الأقلام ، وصودرت حرية التعبير ، ومنعت كلمة الحق لم يكن منتظرا أى تطور فى الصحافة سواء من ناحية الشكل أو المضمون ... كما حدث فى السنوات الأولى من القرن العشرين عندما عاشت الصحافة فترة ذهبية ، اذا ما قورنت بصحافة الحرب العالمية الأولى الخاضعة للاحتلال والأحكام العرفية .

جمدت الصحافة ، وتحجر الأسلوب فى الصحافة العلنية ... ولذلك يجب أن نقتطع هذه السنين ــ كما يقول سلامة موسى ــ من عمر الصحافة كأنها لم تعش فيها ... بل يجب أن تقتطع من عمرنا نحن رجال الذهن .

وعندما أصبح للصحافة السرية دور وتأثير ... رغم أنه لم يعرف اشتراك اسماء شهيرة فى تحريرها .. بادرت سلطات الاحتلال الى اصدار أمر أعلنه الجنرال بلفن القائد البريطانى العام فى القطر المصرى فى يوليو ١٩١٩ جاء فيه (كل شخص يطبع أو يجدد أو ييسر أو يذيع أو يوزع أى نشرة أو صورة فوتوغرافية أو غير فوتوغرافية ، أو رمزا ، أو أى شيء من هذا القبيل ، أو يحاول القيام بأى عمل من تلك الأعمال بقصد الإخلال بالنظام أو اثارة الشعور ضد نظام الحكومة المرعى يرتكب جريمة ضد الأحكام العرفية .. وأى شخص يوجد فى حيازته نشرة أو صورة فوتوغرافية أو غير فوتوغرافية ، أو رمز ، أو أى شيء من الأنواع المتقدم ذكرها ، أو ما يشبهها ويكون الغرض الظاهر منها الإخلال بالنظام أو اثارة الشعور ضد نظام الحكومة المرعى ما ذكر سالفا يعد مرتكبا لجريمة ضد الأحكام العرفية) .

محكمة الجنايات العسكرية أصبحت محل استقبال هؤلاء الذين يخاطرون بتحدى ما ورد فى الأمر العسكرى ... ومع ذلك لم يتوقف صدور الصحف السرية حتى حققت الثورة غايتها ووصلت الى هدفها .

وكذلك لم يتوقف صدور الصحف التى لا تتعرض للسياسة ... فقد

ظهرت خلال الحرب العالمية الأولى مجلة (اللطائف المصورة) لصاحبها الأستاذ اسكندر مكاريوس ... وكانت هى الصحيفة الأولى التى اتخذت الفن الصحفى وحده أساسا للنجاح ... فهى لم تهتم بالأفكار والمقالات ، وانما ركزت اهتمامها فقط على نشر الأخبار المصورة .

واستمرت الحال كذلك الى أن وقعت (معاهدة فرساى) بين ألمانيا والحلفاء للصلح يوم ٢٨ يوليو ١٩١٩ وهى المعاهدة التى أقرت الحماية البريطانية على مصر فصدمت جماهير الشعب ... ولكن كان من نتائج عقد المعاهدة استجابة السلطة العسكرية البريطانية لبعض مطالب الحكومة ، ومنها ايقاف المحاكم العسكرية والإفراج عن المعتقلين السياسيين ، والغاء الرقابة على البريد .

وألغيت الرقابة على الصحف ابتداء من أول يوليو ١٩١٩ ، ونشرت رئاسة مجلس الوزراء بيانا بهذا المعنى قالت فيه (ان الهدوء الذى ساد البلاد الآن ساعد الحكومة على الاتفاق مع السلطة العسكرية على أن الرقابة على المطبوعات تلغى عند توقيع معاهدة الصلح ، فالمأمول من مديرى الجرائد أن يلزموا الاعتدال ، ويستخدموا على الدوام حكم ادراكهم كيلا يلجئوا الحكومة الى العودة لوضع القيود والروابط) .

ولكن الغاء الرقابة على الصحف كان صوريا وشكليا ، ذلك ان ادارة الرقابة أرسلت مذكرة سرية الى الصحف تحدد فيها المحظور نشره فى ١٧ نقطة !!

١٧ نقطة محظورة تبدأ من حظر نشر أى مادة ثورية تحرض على احداث الفتنة أو اثارة المشاعر ضد الحكومة ... الى عدم نشر أخبار الاعتقالات التى لا يصدر بها بيان رسمى ... الى عدم نشر أخبار مقابلات السلطان أو المندوب السامى البريطانى ... وغير ذلك من الأمور التى تجعل الرقابة فعلا تحت قبضة الاحتلال .

وتضمنت المذكرة السرية أمرا بعدم الاشارة الى ما كان مفروضا فى الماضى من رقابة ... ولا الى ما جاء فى هذه المذكرة السرية ... وكل مخالفة لها تقع تبعته على (أصحاب الجرائد ومديريها وناشريها وطابعيها وكتابها) وكل مخالفة لهذه التعليمات تعتبر جريمة ضد الأحكام العرفية .

وظهرت أنياب هذه المذكرة السرية عندما بدأت حملة مقاطعة لجنة ملنر التى وصلت مصر يوم ٧ ديسمبر ١٩١٩ وكانت الاحتجاجات قد انهالت على الصحف ، فأصدرت ادارة المطبوعات بلاغا يوم ١٨ ديسمبر يهدد الصحف بالتعطيل بمقتضى الأحكام العرفية اذا هى نشرت أعمالا أو آراء سياسية موجهة الى السلطات أو اللجنة البريطانية ما لم يصادق عليها الرقيب) ... وأسندت ادارة المطبوعات محاولة الشروع فى قتل رئيس الوزراء محمد باشا سعيد الى ما نشرته الصحف وما تحدثه الجرائد فى الأقاليم من تأثير مخل بالنظام .

اجتمع أصحاب الصحف واحتجوا على هذه البنود ولكنهم منعوا من نشر هذا الاحتجاج أو الاشارة اليه .

وهكذا بدأت صفحة صراع بين الصحافة والسلطة بعد انتهاء الحرب ورفع الرقابة عن الصحف بصورة رسمية .

الصحافة من الثورة .. إلى الدستور

(اليوم احتفلت الوزارة بصدور الدستور
فما نحن بصدوره بأكثر حرية مما كنا قبله)
سعد زغلول

كان رفع الرقابة عن الصحف بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى باعثا على ظهور صحف جديدة بديلا عن التى احتجبت .. وأول صحيفة صدرت بعد اعلان الهدنة كانت جريدة (المنبر) لعبد الحميد حمدى ، ثم (الحقائق) التى صدرت عام ١٩١٩ .

ولكن أهم صحيفة كانت هى التى أصدرها أمين الرافعى عام ١٩٢٠ باسم (الأخبار) بدلا من صحيفة (الشعب) التى كان قد أغلقها احتجاجا على قرار سلطات الاحتلال بضرورة نشر خبر اعلان الحماية على مصر كما سبق أن ذكرنا .

وكما كانت (الشعب) معبرة عن فكر الحزب الوطنى ، كانت (الأخبار) معبرة عن الحركة الوطنية المصرية التى كانت قد بدأت تؤثر فى اتجاه الصحف وتدفعها للدفاع عن مطالب الشعب والثورة ، كما ظهر فى (الأهرام) التى خرجت عن تحفظها وساندت الحركة الوطنية .

وفى عام ١٩٢١ أصدرت الدكتور محمود عزمى جريدة (الاستقلال) التى كتب فيها الدكتور طه حسين والتى كانت تعتبر معتدلة الاتجاه .. كما ظهرت عدة صحف ذات مواصفات خاصة وجديدة .

أصدر سليمان فوزى مجلة (الكشكول) التى قدمت الكاريكاتير فى دور رئيسى واعتبرت بذلك أول مجلة كاريكاتير فى مصر ، اذا استثنينا بعض ما قدمه يعقوب صنوع فى صحفه التى صدرت فى مصر أو فرنسا ... وقد تخصصت الكشكول فى تقديم المادة الترفيهية ، وفى التشهير بالزعيم سعد زغلول وكبار الوفديين .

كما صدرت (النهضة النسائية) للسيدة لبيبة أحمد هاشم فكانت أول مجلة نسائية متخصصة تدافع عن حقوق المرأة التى رفعت الحجاب بدعوة السيدة هدى شعراوى وسيزا نبراوى ومساندة قاسم أمين ، وشاركت فى مظاهرات الثورة .

ولعل أول امرأة مصرية كتبت فى الصحف كانت (باحثة البادية) التى كانت تكتب فى (الجريدة) التى كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد .. وكان لها أسلوب عربى رصين ، ولا غرو فهى ابنة الكاتب الشهير حفنى ناصف ... ولكنها كما يقول عنها سلامة موسى (كانت تكتب وكأنها تنظر الى قلمها من وراء البرقع تطالب بالمحافظة على التقاليد ، ولم يكن هذا عجيبا أيضا فانها كانت زوجة لأحد الوجهاء من العرب فى الفيوم .. ولكن إقدامها على الظهور بقلمها فى صحيفة يومية كان بدعة تبعث على اليقظة والنهوض على الرغم من دعوتها الى المحافظة على التقاليد) .

وجاءت الآنسة مى فى أعقاب باحثة البادية وهى فتاة سورية مسيحية تعلمت فى مدارس غربية ، ولم تكن أمامها عوائق فكرية تحول دون مناقشة القضايا الاجتماعية والأدبية ، ساعدها على ذلك معرفة دقيقة للغة الانجليزية والفرنسية وتعمق فى دراسة الأدب حتى أصبح صالونها الأدبى فى القاهرة ظاهرة ذات قيمة .

وعلى طريق باحثة البادية ، والآنسة مى سارت فتيات مصريات كثيرات

الى عالم الصحافة كما سيأتى بعد .

وقد تميزت هذه الفترة الى جانب صدور صحف جديدة بأن الصحف الوطنية التى لم تحتجب تعرضت للمصادرة والملاحقة ، فصحيفة (الأهالى) التى كان يصدرها عبد القادر حمزة احتجبت بأمر السلطة عدة مرات ... وكانت تستبدل باسماء (المحروسة) و (الرشيد) و (الأفكار) .

وكان عبد القادر حمزة قد انتهج خطة تختلف عن خطة أمين الرافعى الذى عطل صحيفته (الشعب) فور اعلان الحماية ... فقد آثر ألا يلقى القلم وأن يواجه سلطة الاحتلال حتى كانت (الأهالى) تصدر أحيانا وفيها صفحات بيضاء خالية .

ولذا كانت (الأهالى) هى أبرز الصحف الوطنية فى عهد الحرب العالمية الأولى وسيطرة الرقابة العسكرية البريطانية والأحكام العرفية ... ويقال ان محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار المصرى فى ذلك الوقت كان يمد يد المساعدة خفية لهذه الجريدة التى كانت تعتبر مع المؤيد والجريدة من الصحف المعتدلة ، فهى لم تكن فى حماس وسخط صحف الحزب الوطنى .

إمتد العمر بصحيفة (الأهالى) من عام ١٩١٠ الى عام ١٩٢٢ حيث ظهرت لآخر مرة يوم ٧ مايو بعد تعطيل لمدة ستة شهور ، ثم صدر أمر بتعطيلها نهائيا بعد أربعة أيام فقط يوم ١١ مايو ١٩٢٢ .

وكانت (الأهالى) قد انتقلت الى القاهرة من الاسكندرية عقب عودة سعد باشا زغلول من أوربا بعد فراغه من مفاوضة لجنة ملنر وكان ذلك فى ١٣ سبتمبر ١٩٢١ .

احتجبت (الأهالى) نهائيا بأمر الحكومة ، ولكن عبد القادر حمزة لم ينسحب من ميدان الصحافة كما فعل أحمد لطفى السيد وخاصة بعد أن أحجم أصحاب الصحف الصغيرة عن تأجير صحفهم له لتصدر بأسماء أخرى ... ولم

تتحقق بذلك رغبة الحكومة لأنه كان يصدر نشرات غير دورية وهى كانت معفاة من إذن الصدور .

واستقر عبد القادر حمزه على اصدار (البلاغ) بعد عدة شهور من احتجاب (الأهالى) نهائيا فصدر فى ٢٨ يناير ١٩٢٣ ، وأرسل له سعد زغلول برقية من (جبل طارق) الذى كان قد نفى إليه بعد (سيشل) قال فيها :

(يسرنى أن يظهر للأهالى خلف يملأ ما تركت من فراغ ويستأنف ما بدأت من جهاد ، ينثر الحق فى دعوته ويهزم الباطل فى دولته ، يصرح بشعور الأمة بذلك القلم الشاعر ويشرح أمانيها بذلك الأسلوب البديع الباهر سرنى أن يكون لنا بلاغ يحرره عبد القادر) .

ولكن لم تكد تمضى أربعون يوما حتى عطلت السلطة العسكرية جريدة (البلاغ) واعتقلت عبد القادر حمزه فى ثكنات قصر النيل مع أعضاء آخرين من الوفد الى أن تمكن من استئناف إصدارها فى يونيو .

كانت الصحف فى هذا الوقت الذى لم تستقر فيه الأحوال فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ إما صحف وطنية تصدرها (الأهالى) التى وصف سعد زغلول قلم صاحبها بأنه جبار ... وإما صحف ممالئة للاحتلال تاريخيا ... وإما صحف تعادى سعد زغلول وقيادات الوفد مثل (الكشكول) .

لم تكن الأحزاب الجديدة قد تبلورت بعد فقد اكتسحت ثورة ١٩١٩ أحزاب الأمة والاصلاح ... ولم يبق الا الحزب الوطنى والوفد ... ولذا كانت الصحافة تعبيرا عنهما فقط .

وكان محمد فريد زعيم الحزب الوطنى قد عاد الى مصر بعد أن لحقه القدر فى أوربا عام ١٩٢٠ وخلفه حافظ رمضان ، الذى أعاد إصدار جريدة

(اللواء) لفترة .. ولكنها لم تنجح وتواصل الصدور فى مواجهة الصحف التى اختارت تأييد (الوفد) الذى أصبح ملزما بتوكيله الذى لم يعد توقيعات بأقلام من الحبر ... وانما أصبح توكيلا من دماء الشهداء وتضحيات الجماهير .

وأجبر المحتلون على تغيير موقفهم من الثورة .. وخاصة بعد أن تحول الوفد من تيار شعبى وطنى وتنظيم يتحصن بالسرية الى تنظيم علنى شكلت له لجنة قيادية وانتشرت لجانه فى مختلف الأقاليم ووصلت الى القرى .

وكانت ثورة ١٩١٩ قد وضعت حدا بين مرحلتين سياسيتين مختلفتين فقد أنهت مرحلة النكسة السياسية والوطنية التى أعقبت الاحتلال ، وأنهت أيضا دور الأحزاب السياسية التى ظهرت قبل الحرب العالمية الأولى كما ذكرنا .

وفرضت ثورة ١٩١٩ (الوفد) تنظيما وقيادة ... ونجح الوفد فى دوره السياسى والتنظيمى وأكد وحدة الشعب ، وقضى على محاولات التفرقة الاستعمارية بين الأقباط والمسلمين واحتفظ بجذوة المقاومة الشعبية ملتهبة ضد قوات الاحتلال وحاصر المتهادنين من الوزراء وكشف أساليبهم .

ساعد على ذلك شخصية سعد زغلول التى برزت منذ انتخب وكيلا للجمعية التشريعية قبل الحرب ، والتى عرفت كيف تقترب من الجماهير تتأثر بها وتؤثر فيها .

وعندما نفى الى (سيشل) مرة أخرى فى ديسمبر ١٩٢١ بقى مركز رئاسة الوزراء شاغرا لمدة شهرين لا يجد من يقبله وسط جو الغضب والاحتجاج الذى ساد الشعب الى أن قبل عبد الخالق باشا ثروت تشكيل الوزارة بشروط من شأنها تمهيد الطريق أمامه ، وتبرير موقفه أمام الشعب الذى يعيش زعيمه فى المنفى وهى شروط نجم عنها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى نص على الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، واعادة وزارة الخارجية المصرية وقيام تمثيل سياسى لمصر ، وانشاء برلمان تكون الحكومة مسئولة أمامه ،

مع رفع الأحكام العسكرية البريطانية (الأحكام العرفية) ، وذلك الى جانب شروط أخرى كانت تمثل قيودا على حرية مصر واستقلالها مثل تأمين المواصلات البريطانية وحماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات والسودان .

رفض سعد زغلول من منفاه فى سيشل هذا التصريح ووصفه بأنه (أكبر نكبة على البلاد) وأعلن : (اننى لا يمكننى بصفة كونى وكيلا عن الأمة ولا بصفتى الشخصية أن أقبل هذا التصريح مطلقا ، والا كنت سابا للضحايا وكنت قاذفا لأولئك الذين تبرعوا بأرواحهم فى حياة الوطن واستحققت أكبر العقاب منكم ومن الأجيال القادمة) .

ومع ذلك أعلن عبد الخالق باشا ثروت تشكيل وزارته فى أول مارس ١٩٢٢ وأعلن استقلال مصر يوم ١٥ مارس ١٩٢٢ وتحول أحمد فؤاد من سلطان الى ملك .

ويلاحظ ان كل هذه الاجراءات لم تغير فى موقف السلطة من الضغط على الصحف الوطنية المؤيدة للوفد ... فقد صدر قرار بتعطيل (الأهالى) نهائيا بعد شهرين فقط أى فى مايو ١٩٢٢ ... ويظهر ذلك مدى التنافر بين موقف الوفد وموقف الحكومة .

وعلى سبيل المثال .. فان عبد القادر حمزة باشا قد اضطر الى اصدار ١٤ جريدة باسماء مختلفة بين عام ١٩٢٠ ، عام ١٩٣٠ .

لم تكن التغيرات السياسية التى حدثت فى مصر باعلان الاستقلال والدستور بقادرة على حماية الحرية الشخصية وحرية الصحافة بما لا يوفر ديموقراطية حقيقية ، وعبر سعد زغلول عن ذلك ببيان أصدره الوفد قال فيه : (لقد احتفلت الوزارة من قبل باستقلال ٢٨ فبراير فما كنا فى عهده بأكثر استقلالا مما قبله فى عهد الحماية ، واليوم احتفلت الوزارة بصدور الدستور فما

نحن بصدده بأكثر حرية مما كنا قبله) .

لم يقف (الوفد) وحده فى معارضة الدستور ... وانما وقف معه ايضا الحزب الاشتراكى الذى شكل فى مصر عام ١٩٢٠ بعد انتصار الثورة الاشتراكية فى روسيا ، والذى كان حزبا ماركسيا وليدا ليس له تأثير جماهيرى بعد .

وكان الحزب الاشتراكى قد فكر فى اصدار صحيفة تنطق باسمه ونشرت (الأهرام) فى عدد ١٢ يوليو ١٩٢٢ حسب ما جاء فى كتاب الدكتور رفعت السعيد (الصحافة اليسارية فى مصر) :

(كان الحزب الاشتراكى قد طلب رخصة لاصدار جريدة اشتراكية خاصة به فرفضت وزارة الداخلية هذا الطلب ، لاسيما على إثر ما نشره الحزب من الاحتجاجات والاعتراضات المتعلقة بالسياسة المحلية ، ولما لم ينجح فى أخذ الرخصة جعل يبحث عن جريدة موجودة ، فوجد « جريدة الشبيبة » وهى أسبوعية اجتماعية أدبية للشيخ عبد الحميد النحاس ، فاتفق واياه على تحويلها الى جريدة اشتراكية وحولها الحزب الى شكل جديد ، وقد صدر عددها الأول فى هذا الأسبوع وفيها مقالة عن لينين ومقالات اشتراكية متعددة ، وقد جعل شعارها المنجل والمطرقة ... ويظهر ان وزارة الداخلية لم توافق على هذا الإبدال فأصدرت اليوم أمرا باغلاق « جريدة الشبيبة » ومنع نشرها) .

وهكذا كانت (جريدة الشبيبة) هى أول صحيفة اشتراكية تصدر فى مصر ، وان كانت السلطة لم تصرح لها بالتوزيع أو مواصلة الصدور ... ولم تسمح أيضا للحزب باصدار صحف أخرى عن طريق الوسيلة المعروفة فى ذلك الوقت ، وهى الاتفاق على استئجار اسم صحيفة محدودة ... فقد بدأت حملتها لمطاردة الصحافة الاشتراكية .

ولم تكن الصحافة الاشتراكية وحدها هى موضع مطاردة وملاحقة

السلطة الحكومية ، ولكن كانت سائر صحف الوفد والصحف الوطنية أيضا ... وخاصة ان القانون كان يعطى للحكومة حق انذار الصحف أو وقفها أو الغائها بالطريق الادارى .

كانت الفترة التى سبقت اعلان الدستور هى فترة صراع واختلاف حاد فى الرأى بين سلطة الاحتلال والأحزاب .. وفترة ملاحقة للصحافة الوطنية .

وعندما شكلت (لجنة الثلاثين) لوضع الدستور وصفها سعد زغلول بأنها (لجنة الأشقياء) ورفض الوفد والحزب الوطنى المشاركة فيها لرغبتهما فى أن تكون لجنة نيابية تأسيسية ، وليست لجنة حكومية .

انتهت اللجنة من عملها خلال ستة أشهر ، وكان مفروضا أن يصدر الدستور فى أكتوبر ١٩٢٢ لولا سقوط وزارة عبد الخالق ثروت باشا لضيق الملك من العجلة التى أتم بها ثروت مشروع الدستور ، وتعيين محمد توفيق نسيم باشا رئيسا للوزراء .

وتعرض مشروع الدستور لمحاولات تعديل من وزارة نسيم باشا ثم وزارة يحيى باشا ابراهيم التى خلفتها .. وقاوم هذه المحاولات حزب (الأحرار الدستوريين) الذى تشكل بعد اتمام المشروع فى اكتوبر ١٩٢٢ من جميع اعضاء لجنة الدستور وبعض اعضاء حزب الأمة السابقين تحت رئاسة عدلى باشا يكن ... وكان منهم من انشق على الوفد وزعامة سعد زغلول .

وأصدر حزب الأحرار الدستوريين إثر تكوينه جريدة (السياسة) التى رأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ، وشارك بالكتابة فيها الدكتور طه حسين والدكتور محمود عزمى ... ولعبت هذه الجريدة دورا فى السياسة المصرية .

وهكذا عادت الصحف الحزبية الى الظهور ، بعد أن تشكلت فى مصر

أحزاب سياسية جديدة سبقت الدستور الذى صدر يوم ١٩ ابريل ١٩٢٣ ، فكان أول دستور يصدر فى مصر ... بل أول دستور يصدر فى الوطن العربى .

وأثرت الديموقراطية الجديدة على الحياة الصحفية فى مصر .

معركـة الصحافـة الحزبيـة

(كانت تجربتى فى الوزارة محنة أحمد الله
على نجاتى منها قبل أن تأتى على البقية
الباقية من كرامتى)
عبد العزيز فهمى

فرض دستور ١٩٢٣ نفسه على الحياة فى مصر ..

ورغم اعتراضات الوفد على بعض مواد الدستور ، فانه لم يتردد أو يرفض دخول الانتخابات التى أجريت يوم ١٢ يناير ١٩٢٤ والتى حصل فيها على أغلبية هائلة .. فلم ينجح من الحزب الوطنى برئاسة حافظ رمضان سوى أربعة ، وخمسة من الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن ، وسقط يحيى باشا ابراهيم رئيس الوزراء فى دائرته الانتخابية أمام مرشح الوفد ، فقدم دليلا على نزاهة الانتخابات .

لم يدخل الحزب الشيوعى المعركة الانتخابية رغم أن برنامجه كان ينص على العمل لتحقيق مبادئه بالصراع الحزبى والدعوة السلمية عن طريق (اعداد نواب اشتراكيين للبرلمان والمجالس البلدية والمحلية وغيرها) مع الدعوة لتعديل الدستور وقانون الانتخاب ... وهو لم يدخل غالبا لعجزه عن تقديم شخصيات قادرة على تحمل نفقات المعركة التى كانت تشكل عبئا باهظا على المرشحين .

كانت هذه البداية تأكيدا لسلامة توكيل الأمة للوفد . واسقاطا لهؤلاء الذين قبلوا تصريح ٢٨ فبراير ، وانهاء للدور المؤثر الذى لعبه الحزب الوطنى على عهد مصطفى كامل ومحمد فريد ، ومؤشرا بأن الحزب الشيوعى مازال بعيدا عن اثبات وجوده وتحقيق أهدافه ، وشهادة وفاة للأحزاب التى ظهرت

قبل الحرب العالمية الأولى .

دبت الحيوية فى الحياة السياسية بعد صدور الدستور ... ودبت الحيوية أيضا فى الصحافة المصرية .

بعد الانتخابات ظهرت عام ١٩٢٤ عدة صحف منها (الحضارة المصرية) لمحمود رفعت ، و (الرشيد) لأحمد صادق ، و (الجمهور) لمحمود أبو الفتح ، و (الناس) لحسين شفيق المصرى ، و (كوكب الشرق) لأحمد حافظ عوض .

وظهرت فى القاهرة جريدة (الشورى) للصحفى الفلسطينى محمد على الطاهر بسبب حصار الاستعمار البريطانى للصحف الوطنية فى فلسطين .

وتشكل فى هذا العام حزب (الاتحاد) وأصدر صحيفة باسمه ظلت خاملة مثل الحزب .

وأصدرت دار الهلال مجلة (المصور) وعهدت بتحريرها الى فكرى أباظة رجل الحزب الوطنى وعضو البرلمان .

وصدرت (الجهاد) لمحمد توفيق دياب وصدرت روزاليوسف مجلة أسبوعية فنية أصدرتها السيدة روزاليوسف ثم تحولت بعد ذلك الى مجلة سياسية .

معظم هذه الصحف كانت تدور فى فلك الوفد .

وظهرت خلال هذه الفترة الأعداد الأسبوعية للجرائد اليومية مثل (السياسة الأسبوعية) و (البلاغ الأسبوعى) .

كانت الأحداث الوطنية تلهب مشاعر الشعب ... وكان تشكيل الأحزاب قد بدأ يفرض على المجتمع نوعا جديدا من الصراع الحزبى لم تشهد له

مصر نظيرا من قبل .

أول وزارة شعبية منتخبة كانت وزارة زعيم الوفد سعد زغلول التى شكلت فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ ... وكان ذلك ايذانا بأن دور الوفد لم يعد تمثيل (كل) الطبقات ... فقد كان هناك فى البرلمان معارضة من أحزاب أخرى تمثل طبقات خاصة .

وأول صدام حقيقى حدث بين الوفد والأحزاب ... كان من الحزب الشيوعى بعد شهرين من تولى سعد زغلول رئاسة الوزارة أى فى مارس ١٩٢٤ ، وذلك عندما أعلن الحزب عن مؤتمر له فى ٢٣ ـ ٢٤ فبراير وسبق ذلك اضرابات واعتصامات عمالية اعتبرتها وزارة الوفد (عملية اغتصاب) فألغت مؤتمر الحزب وحاصرت المصانع بالجنود ، واعتقلت زعماء الحزب وقدمتهم للمحاكمة ، وحظرت نشاط الحزب ، وأثارت حوله حملة من التخويف والارهاب ، واهتم الوفد ببسط سيطرته على النقابات العمالية بتأسيس اتحاد عمال وفدى برئاسة عبد الرحمن فهمى .

ورغم ان محكمة جنايات الاسكندرية قد أصدرت أحكاما بالسجن على أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى ٦ أكتوبر ١٩٢٤ الا أنه تشكلت فى نفس اليوم لجنة مركزية جديدة ، وبدأ التفكير فى اصدار صحيفة تعبر عن رأى الحزب .

وظهرت صحيفة (الحساب) يوم ٦ مارس ١٩٢٥ ، ولم يكن ذلك هو عددها الأول ... فإنها كانت تصدر قبل ذلك لصاحبها ابراهيم الصيحى الذى جعل شعار الجريدة (ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم ـ الحساب ـ) وأبرز صورة (جلالة مليكنا المفدى فؤاد الأول) فى صدر صفحتها الأولى ... ولكن لم يصدر من المجلة الا عشرة أعداد ثم توقفت يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٢٤ .

وتبعا للطريقة التقليدية فى نشر الصحف فى ذلك الوقت ... اذا عطلت جريدة ظهرت باسم جريدة أخرى يؤجرها صاحبها لظروف خاصة ... كما فعل عبد القادر حمزة عندما أصدر أكثر من صحيفة باسماء مختلفة .. كلما عطلت (الأهالى) ظهرت أخرى كما سبق أن ذكرنا .

تبعا للطريقة التقليدية أصدر رفيق جبور صحيفة (الحساب) بعد توقفها ثلاثة أشهر تقريبا .. وتوفيق جبور رئيس تحرير أول صحيفة اشتراكية أو شيوعية تظهر فى مصر ، وهو صحفى لبنانى ظل يعمل من ١٩١٨ الى ١٩٢٥ فى جريدة (النظام) الوفدية .

وعندما صدرت (الحساب) فى طابعها الجديد حملت تحت اسمها هذه الكلمات (الحساب صحيفة سياسية اجتماعية اقتصادية يومية تصدر مؤقتا مرة فى الأسبوع للدفاع عن حقوق العمال والفلاحين) .

وقد احتفظت الجريدة باسم صاحبها ابراهيم الصبحى كمدير للتحرير بعد أن رفضت الداخلية اعطاء رفيق جبور اذنا بأن يكون رئيسا للتحرير .

كانت (الحساب) هى التجربة الثانية للحزب الاشتراكى بعد (الشبيبة) التى لم يصدر منها سوى عدد واحد كما سبق أن ذكرنا ... وقد اشترك فى تحرير المجلة الشاعر محمود رمزى نظيم الذى نشر عدة قصائد تحت عنوان (من الشعر الفلاحى) .

وسرعان ما بدأ البوليس فى مطاردة المجلة الناشئة ... فنشرت ما يأتى (بينما كنا نطبع العدد الثانى صادره البوليس وهو على المطابع ونقل اعداده الى القسم حيث حجز ثلاثة أيام ثم سلم لمدير (الحساب) ومعظم الأعداد مقطعة فكانت الخسارة مزدوجة ، نفسى أن وزارة الداخلية وما يتبعها من الادارات تكف عن معاكستنا وتلتفت الى سوانا لحظة نتمكن فى أثنائها من التنفس بحرية) .

ولكن الحكومة التى كانت تصادر فى ذلك الوقت جميع الجرائد الاشتراكية والشيوعية الأجنبية وتمنع دخولها مصر ، لم تسمح لمجلة (الحساب) بمواصلة الصدور بعد ثمانية اعداد توقفت بعدها عن الصدور ، واعتقل رفيق جبور والمحررون ومندوبوها فى الأقاليم ، وقدم رفيق جبور للمحاكمة فى ٨ سبتمبر ١٩٢٥ متهما هو وغيره من المتهمين بأنهم (نشروا وهم متفقون جميعا على ذلك أفكارا ثورية مغايرة للمبادىء الأساسية لدستور الدولة المصرية ، وحبذوا تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية فى البلاد المصرية بالقوة والارهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة ، وذلك علنا بطريق بيع وتوزيع كتب وجرائد ونشرات مطبوعة ، والقاء مقالات فى المحال والمحافل العمومية وبواسطة إشهار رسوم وتصاوير ، وهذه الكتب والجرائد والنشرات والمقالات والرسائل ، تحوى أمورا وأفكارا تخالف مبادىء الدستور المصرى الأساسية ... ومن شأنها تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية مثل الغاء نظام الملكية الفردية المقرر فى دستور الدولة واستبداله بنظام شيوعى بطريق الثورة والقوة والتهديد ، وذكر فيها أن النظم التى يسعون اليها أفضل من النظم الحالية وانها حرية أن تتحقق وانه يجب العمل والسعى لتحقيقها وقد ألفوا حزبا لهذا الغرض وسموه بالحزب الشيوعى المصرى) وذلك كما نشرت جريدة الأخبار فى عددها يوم ٩ سبتمبر ١٩٢٥ .

واذا كان سعد زغلول قد بدأ الحملة على الحزب الشيوعى فى مارس ١٩٢٤ فان الاستعمار البريطانى لم يستكن الى زعامته ، فدبر حادث اغتيال السردار البريطانى سيرلى ستاك يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ وقدم اللورد اللنبى انذارا الى سعد زغلول وهو فى موكب من ٦٠٠ فارس بريطانى مقدما له انذارا يتضمن عدة مطالب منها الاعتذار ، والبحث عن الجناة وعقابهم ، وقمع المظاهرات الشعبية ، ودفع نصف مليون جنيه غرامة ، وارجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى من السودان ، وتحويل الوحدات السودانية

التابعة للجيش المصرى الى قوة سودانية تكون خاضعة للحكومة السودانية وحدها ، على أن تصدر الحكومة المصرية بيانا بذلك خلال ٢٤ ساعة .

رفض سعد زغلول الانذار بعد ان عرض الأمر على الملك والوزارة والبرلمان .. وقدم استقالته يوم ٢٣ نوفمبر بعد أيام فقط من استقالته السابقة .

اجتمع مجلسا البرلمان وقررا ابلاغ احتجاجهما الى برلمانات العالم وعصبة الأمم على الاجراءات الانجليزية لما فيها من اعتداء على استقلال مصر والتدخل فى شئونها .

ولكن مؤامرة الاستعمار مضت فى طريقها ... وعين أحمد زيور باشا رئيسا للوزراء ليقبل الانذار البريطانى ، ويعلن سياسة (انقاذ ما يمكن انقاذه) .

كان ظهور حزب (الاتحاد) الذى تشكل برئاسة يحيى باشا ابراهيم مقترنا باستقالة سعد باشا زغلول الذى أعقبها حل مجلس النواب ودعوة الناخبين لانتخابات جديدة ، وقد أصدر الحزب جريدة تحمل اسمه ولكنها كانت مثل الحزب باهتة بلا لون .

انتخب سعد زغلول لرئاسة مجلس النواب بأغلبية ١٢٣ صوتا بينما حصل عبد الخالق باشا ثروت على ٨٥ صوتا .

وهكذا لحقت الهزيمة بالسراى فى محاولتها ضرب الوفد وانهاء دوره السياسى ولم يجد الملك سبيلا سوى اصدار مرسوم ملكى بحل المجلس — مجلس النواب فى مساء اليوم نفسه .

أهين الدستور ، واعتدى عليه لأنه لم يكن يسمح بحل المجلس مرتين فى دورة واحدة لنفس السبب ... وثبت أنه رغم نقاط الضعف فيه لم يكن مقبولا من جانب الاستعمار أو السراى .. كما تبين انه ليس فى مصر مكان لحياة برلمانية

زائفة يقبلها الشعب فى صمت ... وان الوفد قد بدأ يدخل غمار المعارك الحزبية مع أحزاب الأقلية .

وكان عبد العزيز فهمى قد غير موقفه مرة أخرى بعد خروجه من الوزارة ممثلا للأحرار الدستوريين قائلا : (كانت تجربتى فى الوزارة محنة أحمد الله على نجاتى منها قبل أن تأتى على البقية الباقية من كرامتى) ... ودعا الى الربط بين القضية الوطنية وعودة البرلمان والوزارة البرلمانية .

قال ذلك بعد حوالى شهر ونصف من وصفه للدستور بأنه ثوب فضفاض ، فقد أعلن ذلك فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٥ ... وتبلورت الآراء حول فكرة عقد مؤتمر وطنى عام لاعادة الحياة البرلمانية ... واستقر الرأى على وجوب انعقاد البرلمان بمجلسيه يوم ٢١ نوفمبر استنادا الى المادة ٩٦ من غير حاجة لدعوة من الملك .

وبدأت المواجهة بين البرلمان بمختلف الأحزاب المنتمية إليه ، الوفد والوطنى والأحرار الدستوريين ... وبين الملك .

وخرجت المظاهرات الى الشوارع صباح يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ بعد أن أعلنت الحكومة مقاومتها بالجيش لأى محاولة لاقتحام البرلمان الذى تحولت الشوارع المحيطة به الى ما يشبه الثكنة العسكرية .

ومع ذلك اجتمع أعضاء المجلسين فى فندق الكونتننتال ، كما اجتمعت الجمعية الوطنية الفرنسية فى بداية الثورة يوم ٢٠ نوفمبر ١٨٧٩ فى ملعب للتنس ... تصافح رؤساء الأحزاب الثلاثة ، وأصدروا قرارات جماعية باعتبار دور الانعقاد قانونيا مع الاحتجاج على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور .. واجريت انتخابات فاز فيها بالاجماع سعد زغلول رئيسا للمجلس ومحمد محمود (أحرار دستوريين) وعبد الحميد سعيد (وطنى) وكيلين للمجلس .. وقرر المجلس سحب الثقة بوزارة زيور القائمة .

ومع ذلك لم تسقط الوزارة .. بل بقيت بقوة السلاح والنار .

كانت هذه هي صورة الحالة السياسية فى مصر خلال الموقف الحاد الذى اتخذته وزارة زيور باشا من الحزب الشيوعى ومن صحيفة (الحساب) .

وحتى نعطى صورة متكاملة فاننا ننقل ما نشرته الأهرام بتاريخ ٢٩ يونيو ١٩٢٥ عن منع وزارة زيور لدخول السفن السوفيتية الى الموانى المصرية .. وصلت الى الاسكندرية أمس باخرة روسية بلشفية تدعى « تشيشيرين » تنقل بضاعة الى هذا القطر ، وربما كان عليها بعض الركاب أيضا ، فلم تكد تصل الى الميناء الخارجى حتى أصدرت السلطة المحلية أمرا الى البوليس بمراقبتها وحراستها ومنعها من الدخول الى المرفأ . فأوقفت فى الخارج ولا تزال حتى الآن تحت حراسة الشرطة . والمفهوم أن الحكومة ستأذن بتفريغ مشحونها حيث هى راسية ، ثم تأمرها بالانصراف غدا ، ويظهر أن الباخرة « تشيشيرين » هذه لا تدرى ما نحن فيه من الانهماك فى قضية الشيوعية البلشفية فى هذه الأيام .

لم تكن الحكومة ـ حسب رأى الأهرام ـ منهمكة فقط فى قضية الشيوعية البلشفية ... ولكنها كانت قد بدأت تدخل معركة مع الحركة الوطنية وصحافتها الحرة .

الأمور تتجه الى أزمة دستورية ووطنية ... الشعب يساند نوابه .. وقوات الاحتلال تساند السراى والوزارة .

الوفد والأحزاب تصر على شرعية برلمان الكونتننتال ... واللورد لويد يصر على اجراء انتخابات جديدة .

والمعركة حول الدستور تجذب الجماهير فى شدة ، جعلت البعض يصارح سعد زغلول بأنه اشترى الدستور بأغلى من ثمنه .. ولكن وجهة نظر سعد

كانت تتلخص فى أنه اذا ضاع الدستور تحولت الأمة كلها فى طلبه وانصرفت عن قضيتها الأساسية ... قضية الاستقلال .

وهنا برزت ونمت فكرة دعم الدستور والمحافظة عليه لتأمين النضال الوطنى ضد الانجليز .

وأسفرت الانتخابات عن فوز الوفد ، ولكن الوزارة تشكلت فى ٧ يونيو ١٩٢٦ برئاسة عدلى باشا ، وانتخب سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ومعه مصطفى النحاس وويصا واصف وكيلين للمجلس .

قالت الصحف البريطانية عن الوزارة انها بناء وفدى ذى شرفة من الأحرار الدستوريين .

واستمر التحالف بين الحزبين الى أن توفى الزعيم سعد زغلول يوم ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ وخلفه مصطفى النحاس فى زعامة الوفد ... وفرضت المعركة الوطنية نفسها وعندما رفض الوفد مشروع ثروت - تشمبرلن الذى قال عنه النحاس (لا يتفق احتلال مع استقلال) ... وأعلن النحاس أنه لن يقبل بقاء جندى بريطانى سواء فى السويس أو سيناء معلنا كلمته الشهيرة (للقوة أن تفعل ما تشاء) .

استقال عبد الخالق ثروت من رئاسة الوزارة فى ٤ مارس ١٩٢٨ ، وخلفه فيها مصطفى النحاس باعتباره زعيم الأغلبية .

ولكن حزب الأحرار الدستوريين عندما استشعر خلافا بين الوفد والانجليز قدم وزراءه استقالتهم ، وانتهز الملك الفرصة فأقال الوزارة فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ دون أى مبرر واضح بكتاب تميز بالاسفاف والهبوط .

وانكشفت اللعبة الحزبية عندما عهد الملك الى محمد محمود برئاسة الوزارة فكان أول اجراء له هو تأجيل البرلمان شهرا ... واتهمه مصطفى النحاس بأنه

ما كان يجرؤ على ذلك لولا مساندة البريطانيين الذين اعتبرهم مسئولين عن الاعتداء الصارخ على الحرية والدستور .

وفعلا عجز محمد محمود عن مواجهة النواب ، فعلق الحياة النيابية لمدة ٣ سنوات قابلة للتجديد ، واشتهرت وزارته باسم وزارة (اليد الحديدية) .

وهكذا لم يجتمع البرلمان تبعا لدستور ١٩٢٣ سوى خمسة عشر شهرا فقط خلال خمس سنوات كاملة .

وبدأ محمد محمود مفاوضات مع هندرسون أعلن الوفد أنه لن يعلن رأيه فيها الا تحت قبة برلمان منتخب ، فاستقال محمد محمود بعد ١٥ شهرا وخلفه عدلى يكن الذى أجرى انتخابات أعادت الوفد للحكم من جديد فى أول يناير ١٩٣٠ ، وهنا كان لابد من مواصلة المفاوضة مع هندرسون التى سرعان ما تحطمت على صخرة السودان .

وكان النحاس قد اعتزم اصدار قانون محاكمة الوزراء ، ولكن الملك رفض تعيين بعض الأسماء المقترحة فى مجلس الشيوخ ، فقدم النحاس استقالته فى ١٧ يونيو ١٩٣٠ الى مجلس النواب ، وصرخ الكاتب عباس محمود العقاد بكلمته الشهيرة (ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى صيانة الدستور وحمايته) .

كان عباس العقاد يعبر عن أصوات كثير من الكتاب والصحفيين الذين التهبت مشاعرهم الوطنية ، واجتاحهم الغضب من مخالفات الدستور وخاصة بعد أن كلف الملك اسماعيل صدقى وزير داخلية وزارة زيور السابقة بتشكيل الوزارة فى ١٩ يونيو ١٩٣٠ ، فأجل البرلمان شهرا ثم فض الدورة البرلمانية ، وأخيرا وصل الأمر غايته يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ عندما صدر أمر ملكى بابطال دستور ١٩٢٣ وحل البرلمان واصدار دستور وقانون انتخاب جديد .

كانت الصحافة قد دخلت معركة الديموقراطية والدستور ... معظم الصحف الى جانب الوفد الذى كان يعبر عن ارادة أغلبية الشعب .

ولعل الصورة التى أطنبت فى رسمها للحياة السياسية فى مصر خلال السنوات الأولى من الدستور تكون معبرة عن تطور فرض نفسه أيضا على الصحافة فى مصر .

نماذج من الصحافة الوفدية

(ليس هناك من الذين رشحوا أنفسهم
أو رشحهم غيرهم من هو أنقى صفحة
وأطهر ذيلا من مصطفى النحاس)

روز اليوسف ـ سبتمبر ١٩٢٧

السنوات التى أعقبت صدور الدستور ... والمحن التى تعرض لها الدستور نفسه ، أدخلت الصحافة فى عالم جديد ، كانت الأحزاب قد بدأت تلعب فيه دورا رئيسيا ، وكانت معركة الديموقراطية قد فرضت نفسها جنبا إلى جنب مع المعركة الوطنية .

وكما كان الوفد يمثل الأغلبية الشعبية الساحقة كما وضح فى الانتخابات النيابية ، فان معظم الصحف كانت تنجذب له وتصدر معبرة عنه .. ومع ذلك فان الصحافة كانت تمثل قوة تهز حزب الأغلبية .

عندما كانت جريدة (الأخبار) التى يصدرها أمين الرافعى تعبر عن الحزب الوطنى تهاجم الوفد وسعد زغلول الى درجة تلفت النظر وتجذب الاهتمام ... قال سعد زغلول فى إحدى خطبه (إننى أقرأ جريدة الأخبار بالنيابة عن الجماهير) وطالب الشعب بعدم قراءتها ، الأمر الذى أدى فعلا الى هبوط توزيع الجريدة .

ورد أمين الرافعى على ذلك قائلا ان سعد زغلول زعيم الأغلبية لا يريد أن يسمع فى البلد إلا رأيه هو وحده !

وحدث أيضا أثناء افتتاح الدورة البرلمانية الأولى وسعد زغلول رئيسا

للوزراء ان صدر أمر بعدم دعوة جريدة (السياسة) المعبرة عن الأحرار الدستوريين من حضور الحفل ... وعندما سأل أحد الصحفيين سعد زغلول عن سر منع (السياسة) من الحضور قال (أتريدون أن ندعو من يهينوننا ؟)

وقد عقب على ذلك الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير (السياسة) قائلا :

(ثق يا صاحب الدولة أنك أقمت مأتما للحرية ... وهذا هو الخطأ الكبير الذى لن تبرأ منه أبد الدهر) .

ومع ذلك ... فان الصحافة الوفدية قد تعرضت إلى أكثر مما تعرضت له الصحف المعبرة عن أحزاب الأقلية خلال نضال طويل ، بقى الوفد فيه بعيدا عن حق تمثيل الشعب فى مقاعد الحكم بالانتخاب الديموقراطى .

وخلال هذه الفترة كانت (البلاغ) التى صدرت فى ٢٨ يناير ١٩٢٣ هى الصحيفة البارزة ، التى نقدمها هنا نموذجا للصحافة الوفدية .

وصاحب (البلاغ) عبد القادر حمزة بدأ حياته محاميا ، ثم قيل أن اسمه قد سقط من جدول المحاماة لتصرف خاص لم يتداوله أحد فيما بعد ، فالتجأ الى الصحافة وبدأ حياته المهنية فى (الجريدة) مع أحمد لطفى السيد حتى أصدر (الأهالى) فى الاسكندرية ، وهى التى ظلت تصدر طوال الحرب العالمية الأولى رغم قسوة رقابة وتصرفات السلطة العسكرية.

ولم يكن عبد القادر حمزة وفديا من البداية ، بل انه اختلف مع سعد زغلول حول مشروع لجنة ملنر وكتب فى (الأهالى) مقالات كثيرة بهذا المعنى كان أشهرها مقالا تحت عنوان (ما هكذا تورد الإبل يا سعد) فلما تبين له بعد ذلك أنه كان مخطئا فى فهم وجهة النظر التى ذهب اليها سعد انقلب صديقا له — كما يقول الأستاذ الجامعى الدكتور عبد اللطيف حمزة — الذى

أصدر كتابا عن عبد القادر حمزة ... ويقول أيضا إنه على أساس من هذه الصداقة المتينة تأسست صحيفة (البلاغ) .

وقد تعرضت الصحيفة الوفدية الى مصادمات مع السلطة العسكرية ، فلم يكد يمضى على صدورها ٤٠ يوما حتى عطلتها السلطة العسكرية البريطانية فى ٦ مارس ١٩٢٣ وبقيت معطلة حتى ٩ يونيو من نفس العام .

وقد لجأ عبد القادر حمزة الى اصدار صحف تحمل أسماء أخرى تبعا للطريقة التقليدية السائدة فى ذلك الوقت ، فأصدر خلال تاريخ حياة البلاغ عدة صحف حملت أسماء (المحروسة) و (الرشيد) و (الأفكار) الى جانب (الأهالى) من قبل .

أنذرت (البلاغ) مرتين ... وعطلت مرة ثانية فى عهد وزارة محمد محمود باشا (اليد الحديدية) لمدة أربعة أشهر من ١٥ سبتمبر ١٩٢٨ .

وصدر فى عهد وزارة اسماعيل صدقى باشا قرار بتعطيل البلاغ نهائيا فى ١٥ يونيو ١٩٣٠ ثم تجدد تصريحها فى ٢٣ يونيو ١٩٣١ باسم (البلاغ الجديد) ، وعادت الى اسمها (البلاغ) فقط فى ٢٩ يوليو من نفس العام .

ورغم أن (البلاغ) كانت تحمل فى ترويستها أنها صحيفة (وفدية) ، الا ان عبد القادر حمزة كان قد اتفق مع سعد زغلول على أن تكون البلاغ لسان حال الوفد المصرى شرط ألا يكتب الا ما يعتقده ويقتنع به .

وقد فتحت البلاغ صفحاتها لعدد كبير من الكتاب كان فى مقدمتهم عباس محمود العقاد .

ويلاحظ أن (البلاغ) مثل (الوفد) كانت حريصة على الوحدة الوطنية ، وكما شارك عبد القادر حمزه فى مؤتمر الأقباط الذى عقد فى أسيوط قبل ثورة ١٩١٩ وكتب فى الأهالى عدة مقالات عن أخطار الفتنة الطائفية

والدينية ، فتح صفحات البلاغ لعضو الوفد سينوت حنا فى سلسلة من المقالات بعنوان (الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا) .

كان عبد القادر حمزة مثالا للصحفى الوطنى الذى لا يمكن أن يعيش فى عزلة عن أحداث وطنه كما كان يفعل بعض الصحفيين من غير أبناء مصر ، الذين لم تكن تؤرقهم الأحداث الوطنية أو المآسى الاجتماعية ... وانما كان يتركز اهتمامهم على اتخاذ موقف حياد لا يجلب عليهم سخط الحكومة مهما تبدلت فى رئاستها الأحزاب ... والحرص على اقامة علاقات ودية مع سلطات الاحتلال ... والاهتمام بالقضايا المهنية التى تزيد التوزيع من تحسين الطبع أو زيادة الألوان والصور .

وفى ذلك يقول سلامة موسى عن هذه الفترة (الصحفيون غير الوطنيين فى مصر يعيشون كالملوك (فوق الأحزاب) فهم يتمصرون ، ولكن تمصرهم لا يحملهم على الغلو فى الوطنية ، هذا الغلو الذى جعل الأستاذ عبد القادر حمزة يصدر من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٠ أربع عشرة جريدة تقفل كلها ، بعضها اقفالا نهائيا وبعضها لبضعة أشهر ، فلنفرض أننا قابلنا بين صحفى غير وطنى وبين الصحفى المصرى عبد القادر حمزة ، فهل من الانصاف ان نقيم هذه المقابلة على النتيجة الحاضرة ، وهى موت البلاغ وافلاس صاحبه ، بينما كانت الصحف المحايدة فى سنة ١٩٣٠ حية تملأ الشوارع ، وأصحابها قد تكدست خزائنهم بالمال) .

وظل البلاغ وفيا للوفد حتى بعد وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧ وانتخاب مصطفى النحاس رئيسا للوفد .

وكان عبد القادر حمزة هو الصحفى الوحيد الذى كان عليه أن يقابل سعد

زغلول صباح كل يوم ليستقى منه موضوع مقال الغد ، حتى أصبح معروفا أن صاحب البلاغ لم يكتب فى عهد سعد مقالا قبل أن يتحدث إليه فى شأنه .

وكان موقف (البلاغ) واضحا شديد الوضوح فى مساندة الوفد سواء فى السلطة أو خارجها ... فى البرلمان أو خارج البرلمان ... وكانت وطأته شديدة على وزارة محمد باشا محمود .

وعلى سبيل المثال نذكر ما ورد فى البلاغ عدد ٢٩ يوليو ١٩٢٨ عن جريدة حكومية تخيلها سماها الدولة :

صاحب امتيازها : محمد محمود باشا

رئيس تحريرها : أحمد لطفى السيد

مكان الادارة : داوننج ستريت

شعارها : الحكومة فوق الأمة

الاشتراكات : تدفع مقدما عن ثلاث سنوات .

وأما موضوعات العدد فهى :

١ ـ الثقة بالاكراه على أسلوب السلطة العسكرية .

٢ ـ تسليم زمام رجال البوليس ورجال الادارة الى يد مستر كوين بويد .

٣ ـ قبضة حديدية بذراع انجليزية .

٤ ـ محمد محمود لا يهدم الدستور ولكنه يهدم الأمة لينشىء على أنقاضها أمة جديدة تستحق الدستور .

٥ ـ انشاء خزان جبل الأولياء ثمن معجل لاستمرار الوزارة فى الحكم ثلاث سنوات .

وأخذ (البلاغ) يعلن بين حين وآخر عن عدد جديد من اعداد هذه المجلة المخترعة وهى مجلة الدولة . وأخذ يسخر بهذه الطريقة من وزارة محمد محمود صاحب اليد الحديدية ، وهادم الحياة الدستورية ، والمقوض للائتلاف الذى اختارته الأمة لتواجه به أعداء الدستور وأعداء الحرية .

ومع ذلك لم يشتهر عن البلاغ ميل الى الاسفاف أو هبوط فى المستوى ... وكان عباس محمود العقاد فى مقدمة الكتاب الذين كتبوا فيه وارتبطوا به .

والذى يتابع تاريخ هذه الفترة يجد أن بعض القضايا الفكرية قد هزت المجتمع الى جانب القضايا السياسية ، ومنها على سبيل المثال الموقف الذى تعرض له الشيخ على عبد الرازق عندما أصدر كتابه (الاسلام وأصول الحكم) ، الذى أثار ثائرة الأزهريين حتى اجتمعت هيئة كبار العلماء برئاسة شيخ الأزهر وحضور ٢٤ عالما ، اجتمعوا بصفة تأديبية فى أغسطس ١٩٢٥ ، واصدرت حكمها بأن الكتاب يحوى امورا مخالفة للدين ، كما قررت الهيئة أن مؤلف الكتاب سلك مسلكا لا يصدر عن مسلم ، فضلا عن عالم من علماء الأزهر ، ومن أجل ذلك قررت الهيئة اخراجه من زمرة العلماء ، ومحو اسمه من سجلات الجامع الأزهر ، كما فصلته من وظيفته ، وكان قاضيا بالمحاكم الشرعية ، وقررت الهيئة كذلك عدم أهليته للقيام بأى وظيفة عمومية دينية أو غير دينية .

ومن غريب أن البلاغ المدافعة عن حرية الرأى قد وقفت فى الجانب المضاد للشيخ على عبد الرازق على عكس موقف جريدة (السياسة) المعبرة عن لسان الأحرار الدستوريين ، ذلك لأن سعد زغلول قد أخذ موقفا مؤيدا لموقف الأزهريين وهو واحد فى أصله منهم .

وكانت هناك أيضا قضية كتاب (فى الشعر الجاهلى) الذى صدر عام ١٩٢٦ والذى بنى على أساس الشك فى معظم الشعر الجاهلى أو نسبته للعصر

الجاهلى ، والقول بأنه أدب ظهر بعد الاسلام ، فهو يمثل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم أكثر مما يمثل حياة الجاهليين .

واصطدم الدكتور طه حسين فى بحثه هذا بعلماء الدين ، وأثار كتابه عاصفة من الغضب فى الصحافة ، ظهرت آثارها على صفحات البلاغ وغيره من الصحف الوفدية ... وقد دافع الدكتور طه حسين عن نفسه بعد تحقيق النيابة العامة معه على صفحات جريدة (السياسة) .

كان محمد صبرى أبو علم عضو الوفد ، هو محامى أصحاب البلاغات المقدمة ضد طه حسين ، وكان المدافع عنه ابراهيم الهلباوى الذى اشتهر اسمه مرتبطا بحادث دنشواى ، ومحمد كامل البندارى الذى أصبح فيما بعد وكيلا للديوان الملكى ، ثم سفيرا فى موسكو ورئيسا للمجلس المصرى للسلام .

حكمت النيابة العامة بحفظ القضية ، وعاد طه حسين للتدريس فى الجامعة المصرية بعد أن كانت الجامعة قد رفضت قبول استقالته ... ومع ذلك فانه كان للبلاغ موقف آخر عندما استقال أحمد لطفى السيد رئيس تحرير (الجريدة) سابقا من منصبه كمدير للجامعة المصرية احتجاجا على فصل طه حسين من الجامعة ... فقد أشادت البلاغ بموقف طه حسين ، واعتبرت انه كان ضحية حرصه على كرامة منصبه العلمى كعميد لكلية مصرية وكعالم يحرص على كرامة العلم ... كما اعتبرت أن استقالة أحمد لطفى السيد هى مثال رائع لموقف العالم المدافع عن الحرية .

النظرة السياسية للبلاغ ربما كانت مستجيبة لمشاعر الناس فى ذلك الوقت ، وقد عبر عن ذلك عبد القادر حمزة فى صحيفة البلاغ الأسبوعى عندما كتب :

« كنت أسعى لأن يكون البلاغ الأسبوعى صلة وثيقة بين الماضى والحاضر ، حتى لا تنفصم العرى بيننا كما يريد البعض . فالبلاغ الأسبوعى على

هذا من أنصار التجديد عن طريق التطور لا التجديد عن طريق الخروج على التقاليد أو الثورة على كل شيء جديد . وهذا يصل بنا الى ناحية الدين . فقد رأينا بعض الدعاة الى التقدم يضمنون دعوتهم سعيا ظاهرا أو خفيا لنشر الالحاد فى مصر ، ولكنا لم نر فى مثل هذه الدعوة الا تأخرا لا تقدما . فان الالحاد صنو الإباحية وكلاهما من أسباب التدهور والفناء للأمة » .

ويقف حديثنا عن البلاغ الآن الى الفترة التى بدأت فيها مرحلتها الجديدة فى بداية الثلاثينات بعد سقوط دستور ١٩٢٣ .

وكانت قد ظهرت خلال هذه الفترة مجلة أخرى لعبت دورا بارزا فى الحياة السياسية هى مجلة (روز اليوسف) التى أصدرتها الفنانة اللامعة التى تحمل نفس الاسم ، والتى عملت فى فرقة يوسف وهبى واستقالت منها عندما جنح الى تقديم مسرحيات (الميلودراما) مثل الذبائح التى كتبها انطون يزبك .

وقد ظهرت فى البداية مجلة فنية تهتم بالأدب والفن ويكتب فيها الأدباء والفنانون : ابراهيم رمزى ومحمد لطفى جمعه وزكى طليمات وحبيب جاماتى واحمد رامى وغيرهم ... ولكنها تحولت الى مجلة سياسية فى عهد زيور باشا الذى لجأت اليه للحصول على الترخيص باصدارها سياسية فقال كلمته الخالدة على حد تعبيرها (أعطوها الترخيص .. خلوها تاكل عيش) .

كان غريبا ومثيرا أن تفكر فنانة ناجحة فى تحويل مجرى حياتها من الفن الى الصحافة ... وكان أكثر غرابة وإثارة أن تزيد اهتماماتها من دائرة الفن والأدب الهادئة الى دائرة السياسة التى تموج بالصراعات والخلافات .

وأثبتت روز اليوسف مكانها فى مجال الصحافة الأسبوعية حيث تميزت بالأقلام الجادة المنسوجة مع الاخراج الفنى والكاريكاتير الذى كانت تنقله عنها بعض الصحف اليومية مثل البلاغ .

وعندما مات سعد زغلول ظهرت صورته على غلاف المجلة ، وكانت هذه هي أول مرة تظهر فيها صورة رجل سياسى على غلاف المجلة ... ووقفت المجلة مع مصطفى النحاس موقفا ثابتا ودعمت ترشيحه رئيسا للوفد بدلا من فتح الله بركات ، الذى تبنت الصحف المعادية للوفد قضية ترشيحه لشق صفوف الوفد .

ومع ذلك فانه بعد انتخاب مصطفى النحاس رئيسا للوفد نشرت (روز اليوسف) رأيا يظهر أن الصحف الوفدية لم تكن ملتزمة بالمعنى المتعارف عليه اليوم الذى يجبر الصحف الحزبية على انتهاج خط الحزب مهما كان خاطئا .

كانت الصحافة فى هذه الفترة معبرة عن رأى أصحابها ورؤساء تحريرها بالدرجة الأولى .

وعلى سبيل المثال نشرت روز اليوسف فى عدد ٢٩ سبتمبر ١٩٢٧ مقالا عن النحاس باشا وهى التى أيدت ترشيحه ... مقالا لبقا وناقدا فى نفس الوقت جاء فيه :

(ليس هناك بين الذين رشحوا أنفسهم أو رشحهم غيرهم من هو أنقى صفحة وأطهر ذيلا من مصطفى النحاس ، فتاريخه معروف ومواقفه المشرفة مع مصطفى كامل أولا وسعد زغلول ثانيا معروفة للجميع ، ومصطفى فوق هذا رجل نزيه جدا ، صعب جدا فيما يراه حقا ، صريح جدا أو كما يقولون أن كلمته على طرف لسانه ...)

(ولكنهم يقولون أيضا أن مصطفى النحاس (متسرع) جدا والكلمة التى تستعملها الدوائر السياسية للتعبير عن صفة التسرع هى كلمة (مدب !) وهم من أجل ذلك يقولون أنه ليس من المستحيل أن يكثر وقوع التصادم بين النحاس باشا والحكومة وبينه وبين أعضاء الوفد نفسه ! ولكنا نعتقد أن

مصطفى النحاس غدا سيكون غيره بالأمس ، وان ثقل واجبات الرئاسة التى ألقيت على عاتقه سوف يهدىء من حدة (تسرعه) ، وان شعوره بضخامة المسئولية كفيل بحمله على التفكير مرتين قبل أن يتكلم !)

هكذا انغمست (روز اليوسف) فى السياسة الى قمة رأسها وأصبح لها دور إيجابى فى كل مشكلة من مشاكل الساعة .

وقد تعرضت روز اليوسف مثلما تعرضت البلاغ للمصادرة بل للتوقف ، عندما كتب محمد التابعى وكان أبرز العاملين مع روز اليوسف منذ صدورها ... كتب مقالا عن حياة الملوك فى الخارج ... والسيدة روز اليوسف فى باريس ... فاعتقل رئيس التحرير بالنيابة ، واعتقل محمد التابعى معه ، ووضعا فى زنزانة واحدة ، وقيدت ايديهما بالقيود الحديدة ، فكانت هذه أول مرة توضع فيها هذه القيود فى يد كاتب صحفى ... وقد أثار هذا الحدث الصحافة وانبرت البلاغ تهاجم أسلوب السلطة .

وقد كشف هذا الحادث عن محمد التابعى كاتبا سياسيا ... اذ انه كان يكتب حتى هذه اللحظة بلا توقيع .

وأدخلت روز اليوسف الكاريكاتير فى عالم السياسة والصحافة ليلعب دورا رئيسيا فى النقد ... الأمر الذى عرضها للمصادرة عندما قامت بحملة على حق الملك فى اقالة الوزارات ، صورت فيها محمد محمود يدوس على الدستور وهو يصعد الى مقعد الوزارة ... لم يطق رئيس وزارة (اليد الحديدية) مثل هذا النوع من النقد الصريح والجرىء معا .

وتعرضت روز اليوسف لما تعرضت له صحف هذا العهد ... كلما صودرت صدرت باسم جديد .. فكانت (الرقيب) لصاحبها جورج طنوس أقبل الناس عليها لأنها كانت شبيهة بروز اليوسف ، ثم عطلت بعد أربعة أشهر .. وأصدرت السيدة روز اليوسف مجلات أخرى .. مثل (صدى الحق)

و (الشرق الأدنى) و (مصر الحرة) .

ولما لم تتوقف روز اليوسف عن ممارسة حقها بصلابة ، لجأت حكومة محمد محمود إلى أسلوب الرشوة عن طريق عرض تقدم به موظف كبير .. ولكن روز اليوسف رفضت العرض باباء وشمم .

واستمر الاضطهاد للمجلة السياسية الى الحد الذى أشاد فيه مصطفى النحاس بما تتعرض له فى خطبة كان يهاجم فيها حكم محمد محمود الاستبدادى ... فأصبحت المجلة بعد ذلك موضع فخر الجميع ...

وبلغ من نجاح (روز اليوسف) ان أطلقت جريدة السياسة على الوفد اسم حزب (روز اليوسف) ، ولم يجد مصطفى النحاس فى ذلك غضاضة ، بل خطب مرة فى حشد من أنصار الوفد قائلا : انه يفخر بأن يكون الوفد حزب (روز اليوسف) المجلة المجاهدة الشجاعة التى لا تبالى بالاضطهاد ... وكان النحاس صادقا اذ صودر من روز اليوسف ٦٢ عددا وظهر ٤٢ عددا فقط خلال سنتين من أكتوبر ١٩٢٧ إلى اكتوبر ١٩٢٩ .

وكانت روز اليوسف مدرسة لتخريج جيل جديد من الصحفيين تربع على عرش الصحافة فيما بعد .. فالى جانب محمد التابعى وعباس العقاد فتحت المجلة أبوابها لجيل جديد من الشباب .. مصطفى أمين وجلال الحمامصى وكامل الشناوى ويوسف حلمى وسعيد عبده وكرم ثابت وغيرهم .

ولم تكن أحزاب الأقلية بلا مجلة منافسة .. اذ كانت هناك (الكشكول) يصدرها سليمان فوزى ، وكانت تتميز عن روز اليوسف فى الكاريكاتير الذى كان يرسمه (سانتير) الى ان ظهر (صاروخان) الأرمنى الأصل ، الذى لم يكن يعرف شيئا عن الحياة السياسية فى مصر ، الى أن دربه محمد التابعى وجعله واحدا من أبرز رسامى الكاريكاتير فى مصر .

كانت الصراعات الحزبية قد فرضت نفسها على هذه الفترة التى أهدر فيها الدستور ... ومع بداية الثلاثينات تغير الموقف السياسى تماما بعد الغاء دستور ١٩٢٣ واقرار دستور اسماعيل صدقى ١٩٣٠ ... وانعكس هذا التغيير على موقف الصحافة ، وعلى نوعية الصراع داخل المجتمع أيضا ...

الصحافة وسقوط الدستور

(الحق فوق القوة .. والأمة فوق الحكومة)

سعد زغلول

مانشيت جريدة البلاغ

كان تكليف الملك فؤاد لاسماعيل صدق بتشكيل الوزارة فى ١٩ يونيو ١٩٣٠ قبل أن تنقضى ستة أشهر على وزارة مصطفى النحاس باشا ايذانا باهدار قيمة الأغلبية الشعبية التى استندت الى دستور ١٩٢٣ .

اتهم النحاس باشا صدقى الذى كان وزيرا لداخلية أحمد زيور فى أول انقلاب على الدستور بأنه من العناصر (الرجعية) التى تدبر المكائد خلف الظهور ... وكان هذا تعبيرا جديدا لا يستخدم فى لغة حكام ذلك العهد .

أصدر اسماعيل صدقى باشا مرسوما بتأجيل البرلمان شهرا ابتداء من ٢١ يوليو ١٩٣٠ ، وطلب ويصا واصف أن يقرأ المرسوم داخل البرلمان ، ولكن صدقى باشا أغلق أبواب البرلمان وربط أبوابه الخاجية بسلاسل من الحديد ، ووضع القوات المسلحة لمنع النواب من الدخول .

ولكن ويصا واصف رئيس المجلس طلب من بوليس البرلمان تحطيم السلاسل حيث تدفق النواب والشيوخ الى القاعات فى حماس عظيم ، وأصدر مجلس الشيوخ قرار احتجاج على ما أقدمت عليه الحكومة من مخالفة دستورية .

ولكن اسماعيل صدقى أصدر مرسوما بفض الدورة البرلمانية ، ثم استصدر أمرا ملكيا فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ بابطال دستور ١٩٢٣ وحل البرلمان ،

واصدر دستور وقانون انتخاب جديدين .

كان دستور ١٩٣٠ نكسة وتراجعا فى الحركة الدستورية والديموقراطية اذ جعل الانتخابات على درجتين ، واشترط فى المندوب (الخمسينى) أن يكون مالكا لأموال ثابتة مربوطا عليها ضريبة عقارية لحساب الحكومة وحائزاً للشهادة الابتدائية على الأقل ، كما تنازل عن حق الاقتراع المباشر على الثقة بالحكومة ، وحرم المجلس من حق اقتراح القوانين .

قرر الوفد والأحرار الدستوريين عدم دخول الانتخابات منعا لاضفاء الشرعية على هذا الدستور الهزيل ، واستقال عدد كبير من العمد الذين صدرت اليهم الأوامر بالانضمام لحزب الشعب الذى شكله اسماعيل صدقى باشا فى نوفمبر ١٩٣٠ .

ولم يلجأ الوفد الى المقاومة الهادئة وإنما عمل على اثارة روح الثورة عند الجماهير منتهزا قسوة الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم فى بداية الثلاثينات ... وانجلى ذلك عن عدة محاولات لاغتيال عدد من الوزراء وتفجير القنابل وتقطيع اسلاك التليفون وتخريب السكة الحديد .

لم يشترك فى الانتخابات سوى حزب الشعب وحزب الاتحاد والحزب الوطنى الذى كانت الشكوك قد بدأت تحيط بتصرفات وأفكار رئيسه الجديد محمد حافظ رمضان باشا .

وانعكست هذه الحالة السياسية المتفجرة على الصحافة المصرية عموما والصحافة الوفدية خصوصا .

وقد عانت الصحافة دائما من التغيرات أو الانقلابات الدستورية ... ففى أول اعتداء على الدستور عندما شكلت وزارة زيور باشا بعد استقالة سعد زغلول أصدرت الوزارة مرسوما بقانون فى ٩ يوليو ١٩٢٥ بتعديل بعض مواد

قانون العقوبات فيما يتصل بجنح النشر والصحافة بقصد التشديد عليها وافساح المجال لاغلاق الصحف .

وعندما وقع الاعتداء الثانى على الدستور فى عهد محمد محمود ، أعاد العمل بقانون المطبوعات القديم الذى كان قد صدر عام ١٨٨١ والذى يبيح تعطيل الصحف وإلغاءها اداريا ، وبهذه الوسيلة ألغيت رخص نحو مائة صحيفة ، وانذرت وعطلت عدة صحف من صحف المعارضة الوفدية .

أما فى عهد اسماعيل صدقى بعد الاعتداء الثالث أو الانقلاب الثالث على الدستور ، فقد مارست الوزارة اجراءات التعطيل والمصادرة بشكل لم يسبق له مثيل ، حتى وصل الأمر بعد تحالف الأحرار الدستوريين مع الوفد الى حد تعطيل جريدة (السياسة) ، ثم الأحرار الدستوريين وغيرهما ، كما وضعت الوزارة القانون رقم ٢٨ فى ١٤ فبراير ١٩٣١ أضافت فيه أحكاما جديدة إلى قانون العقوبات بشأن الجرائم التى تقع بوساطة الصحافة ، ووضعت كذلك فى ١٨ يوليو ١٩٣١ القانون رقم ٩٧ لتلك السنة بتعديل قانون العقوبات لتشديد العقوبات على جرائم النشر ، كما أصدرت فى نفس اليوم قانونا جديدا للمطبوعات تحت رقم ٩٨ تضمن عقبات جديدة أمام انشاء الصحف مما لم يسبق له نظير ، فاشترط على سبيل المثال أن يكون لكل جريدة مطبعة خاصة تابعة لملاكها ...

وتوالى اصدار القوانين المقيدة للحريات ، المصادرة لحريات الصحافة ... فصدر قانون ٣٥ فى ١٠ يوليو ١٩٣٢ يشدد العقوبات على من ينشر أخبارا كاذبة من شأنها أن تعرض نظام الحكم للكراهية أو الازدراء ، أو تشكك فى صحته أو سلطاته .

ومع ذلك لم تتوقف الصحف المعارضة عن الصدور ... رغم أن أول قرار صدر من مجلس الوزراء كان تعطيل (البلاغ) تعطيلا نهائيا .

واحتجبت (البلاغ) عن قرائها الى ان تجدد التصريح لها باسم (البلاغ الجديد) فى ٢٣ يونيو ١٩٣١ .

وخلال هذه الفترة التى زادت عن عام كامل ، كتب عبد القادر حمزة فى عدة صحف منها (الأفكار) التى كان يصدرها عبد العزيز الصوفانى ، والتى كتب فيها عبد القادر حمزة عام ١٩٢٢ أى فى الفترة بين الغاء صحيفة (الأهالى) وصدور صحيفة (البلاغ) .

وكتب أيضا فى صحف (الساعة) ، (الوجدان) ، (النجمة) ، و (المساء) وكانت أشهرها ، واستمر يكتب فيها إلى أن عطلت نهائيا أيضا .

ولم تكن (البلاغ) هى الصحيفة الوحيدة التى تعرضت للمصادرة ، فان جميع الصحف الوفدية كانت تتعرض للمصادرة ، مثل اليوم وكوكب الشرق وروز اليوسف والنهار والرغائب والثبات والبرق ... الخ .

واحتفظت (البلاغ الجديد) بعد عودتها للظهور بموقفها المؤيد للوفد المهاجم لاسماعيل صدقى ، ولوحظ أن عباس محمود العقاد قد ترك (البلاغ الجديد) ، ودخله كتاب آخرون مثل زكى مبارك وابراهيم المصرى وسلامة موسى ولطفى جمعة ومحمد السباعى ومحمد على غريب وابراهيم عبد القادر المازنى ، ومحمد عبد القادر حمزة .

ولم يلبث عبد القادر حمزة أن حذف كلمة (الجديد) من اسم الجريدة لتعود (البلاغ) فقط كما كانت ، وتحت الاسم كلمة سعد زغلول (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة) ، كما كانت الصفحة الأخيرة تحمل كلمات أخرى لسعد زغلول تقول (يعجبنى الصدق فى القول ، والاخلاص فى العمل ، وان تقوم المحبة بين الناس مقام القانون) .

واستمر البلاغ يحمل هذه الكلمات حتى بعد خصومته مع الوفد أو

مصطفى النحاس والتى بدأت عام ١٩٣٢ ، ولكنه أسقط هذين الشعارين يوم ١٠ يونيو فظهرت (البلاغ) خالية منهما ... وكان ذلك موقفا معاديا للوفد عامة سواء الوفد فى عهد سعد أو فى عهد مصطفى النحاس .

والسبب الذى من أجله خرج (البلاغ) عن زعامة مصطفى النحاس ، هو ظهور فكرة عام ١٩٣٢ تهدف الى تشكيل وزارة ائتلافية من حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين .

تحمس لذلك الأحرار الدستوريون (حزب الأقلية) ، وأقنعوا ثمانية من أعضاء الوفد ، ولكن مصطفى النحاس ومكرم عبيد وأحمد ماهر ومحمد فهمى النقراشى رفضوا ذلك استنادا الى ميثاق كان قد عقد بين الأحزاب فى مارس ١٩٣١ ينص على ألا يقدم على تأليف الوزارة غير حزب الأغلبية .

أعلن محمد نجيب الغرابلى استقالته من الوفد فى اغسطس ١٩٣٢ وأعلن النحاس قبولها فى أكتوبر ، واعترض على هذا التصرف كل من فتح الله بركات وحمد الباسل ومراد الشريعى وعلوى الجزار وفخرى عبد النور وعطا عفيفى وراغب اسكندر وسلامة ميخائيل ونشروا بيانا بالتضامن من الغرابلى ، فاعتبرهم النحاس مفصولين ومن بعدهم أيضا بهى الدين بركات وعلى الشمسى .

ومع هذا الانشقاق خرج (البلاغ) أيضا عن زعامة الوفد ، واتخذ موقفا مضادا لتاريخه الطويل فى التعاون مع الوفد .

وبدأ البلاغ يدخل فى معارك صحفية مع الصحف الوفدية الأخرى التى كانت تواصل هجومها على صدقى باشا .

ظهرت المقاومة على صفحات الصحف الوفدية وانضمت اليها صحيفة جديدة ... عندما أصدر محمد توفيق دياب صحيفة (الجهاد) اليومية فى ١٧

سبتمبر ١٩٣٠ حاملة هذا الشعار ، بيت من الشعر للشاعر الكبير أحمد شوقى :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا   ان الحياة عقيدة وجهاد

ومحمد توفيق دياب لم يبدأ حياته وفديا ، اذ أنه بعد عودته من لندن عام ١٩١٦ بعد خمس سنوات من الدراسة ، أخذ يلقى محاضرات فى فن الالقاء ، فى الكنائس والمسارح ، ويكتب فى جرائد (المقطم والأهرام) ثم عمل مترجما فى ادارة المطبوعات بوزارة الداخلية ، ورقيبا على الصحف المصرية التى تصدر بالانجليزية الى ان استقال ليتحرر من قيود الوظيفة .

والتقى توفيق دياب بمصطفى النحاس باشا الذى عهد اليه ببعض الأعمال البسيطة المتعلقة بالوفد المصرى الذى كان موجودا فى لندن ، وحينما حدث خلاف بين سعد وعدلى انضم توفيق دياب الى جريدة (السياسة) مؤيدا الأحرار الدستوريين ناقدا الوفد والوفديين نقدا نزيها وحارا .

وغير توفيق دياب موقعه مرة أخرى عندما عمل مدير ادارة الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ ، وبقى بها الى أن قامت وزارة محمد محمود باشا بتعطيل الحياة النيابية والدستور فأسرع الى جريدة الأهرام حيث نشر مقالا يعارض فيه اتجاه الوزارة والحزب الذى كان يعتنق مبادئه حتى هذه اللحظة ... فقدمته ادارة الجامعة للتحقيق ، ولكنه آثر الاستقالة قائلا (لا طاعة فى عنقى بوزارة تؤاخذنى على مخالفة لقانون فى حين انها تهدم دستور الأمة وهو أساس القوانين جميعا) .

خرج توفيق دياب على الأحرار الدستوريين وأعلن فى احتفال عيد الجهاد يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٨ اعتناقه لمبادىء الوفد (صادق الوفاء لها ، دائم الجهاد فى سبيلها مهما تكن المصاعب ومهما تكن صروف الأيام) .

أخذ توفيق دياب منذ أعلن وفديته يشارك فى تحرير (وادى النيل) التى أصدرها مع محمود عزمى فى الاسكندرية ثم أصدر صحيفة (اليوم) فى ٢١

يناير ١٩٣٠ وعندما أغلقت فى سبتمبر ١٩٣٠ أصدر (الضياء) ومن بعدها صدرت صحيفة (الجهاد) فى هذا الوقت الذى جابهت فيه الصحف المصرية ديكتاتورية اسماعيل صدقى باشا .

كل هذه الصحف الرئيسية وغيرها التى أصدرها أو شارك فى تحريرها توفيق دياب كانت وفدية المبدأ ، حادة النقد لوزارة اسماعيل صدقى فقد استقبلتها جريدة (اليوم) على سبيل المثال بمقال عنوانه (مرحبا بالخطوب) .

وقد فتحت الجهاد صفحاتها لعدد من الكتاب العرب مثل الأمير شكيب ارسلان ، والزعيم التونسى عبد العزيز الثعالبى ، وحبيب جاماتى ، والأديب السودانى عثمان محمد هاشم ، والشاعر بشارة الخورى .

والتزمت بتأييدها للوفد رغم خروج المنشقين عام ١٩٣٢ على عكس موقف (البلاغ) الأمر الذى جعلها الصحيفة الوفدية المتميزة وقد كتب فيها عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين والدكتور محمود عزمى والدكتور رياض شمس .

ويروى الدكتور رياض شمس صورة للظروف القاسية التى صدرت فيها (الجهاد) فى عهد صدقى باشا فيقول (إن الأستاذ محمد توفيق دياب بدأ العمل فى صحيفته معتمدا على شعبيته لدى القراء وتشوقهم للأقلام الجريئة التى ترفع الكبت عن نفوسهم وقد كانت امكاناته المادية لا تستطيع أن تفى باصدار الجريدة فى بادىء الأمر حتى أنه كان يؤجر الكراسى من الفراش باليوم ، وكان بعض المحررين يشاركون فى تحريرها تطوعا ....) .

هكذا كانت الصحف الحزبية تعانى من ضغوط الحكومة المستندة الى القانون ، والى ضغوطها التى تحرم الصحيفة من الاعلانات .

وقد لعبت (روزاليوسف) دورا بارزا فى هذا المضمار خلال هذه الفترة الصعبة فى حياة مصر ... وقدمت الى المحاكم فى أكثر من قضية ، وتقول السيدة

روز اليوسف فى كتابها ذكريات :

قضى الوفد فى المعارضة ما يزيد على السنوات السبع ، لم يجلس خلالها على مقاعد الحكم الا مرة واحدة فى سنة ١٩٣٠ ولم يطل جلوسه عليها أكثر من ستة أشهر تقريبا ذهب خلالها الى لندن لمفاوضة الانجليز ثم لم يلبث ان قطع المفاوضات بسبب مسألة السودان قائلا (تقطع يدى ولا يقطع السودان) .

كانت هدنة بين انقلابين شهيرين : انقلاب محمد محمود سنة ١٩٢٨ ، ثم انقلاب صدقى سنة ١٩٣٠ .

وقضت (روز اليوسف) هذه المدة ذاتها فى صفوف المعارضة التى لا تلين .. متحملة كل مشقات الجهاد ، والاصرار ، خلال هذين الانقلابين ، اللذين اختفت فيهما أكثر الضمانات .

ولم يكن الوفد يبخل على بالتشجيع الأدبى ، وأنا أرفع صوتى بتأييده .

وتوضح السيدة روز اليوسف موقف مجلتها فى كتابها ذكريات أيضا قائلة :

ونهضت (روز اليوسف) ازاء هذا الموقف بمسئوليتها كاملة .. وشنت على الوزارة منذ مولدها أعنف الحملات .. ولما تفاقم السخط وارتفعت أرقام القتل صدر العدد رقم ١٨٤ وقد رسمت على غلافه صورة كبيرة بعنوان (حكم الارهاب) تمثل مصر بلدا محترقا يشيع فيها الخراب وعليها يدوس اسماعيل صدقى وقد حمل فى يده مسدسا يتصاعد من فوهته الدخان .. وكتب تحتها : (اسماعيل صدقى يحكم البلاد بالعناصر الرشيدة : الحديد والنار !) ..

هذا العدد كان يجب أن يصدر يوم ٥ أغسطس ١٩٣٠ . وقد فرغنا من انجازه وسافرت أنا الى الاسكندرية وسافر التابعى الى رأس البر لقضاء عطلة الأسبوع . وفى الاسكندرية جاءتنى الأنباء قائلة ان اسماعيل صدقى صادر

العدد ، وان مجلس الوزراء قرر الغاء رخصة المجلة .. الى أجل غير مسمى !

كان هذا النبأ صدمة لى . كنت أعرف مقدما ان موقف (روز اليوسف) سيجر عليها المتاعب ، ولكننى لم أتوقع أن تجىء هذه المتاعب بهذه السرعة وبهذا العنف .

وبحثت روز اليوسف عن رخصة تصدر مجلتها باسمها فصدرت مجلة (الصرخة) فى حجم الجرائد اليومية ، وكانت هذه هى أول مرة تعرف فيها الصحافة المصرية مجلة أسبوعية بهذا الحجم على انها عادت الى حجم روز اليوسف بعد عددين فقط ، وقد كتب على غلافها (روز اليوسف ومحمد التابعى ومحمد على حماد يحررون هذه المجلة) فأقبل القراء عليها كما أقبلوا على روز اليوسف .

صدر من (الصرخة) ٤٢ عددا قبل أن تعود روز اليوسف للصدور .

وظهرت فى بداية الثلاثينات صحافة تقدمية جديدة ، تعتبر امتدادا لمجلة (الحساب) التى سبق أن أشرنا اليها والتى صدرت عام ١٩٢٥ وتحت اسمها (صحيفة سياسية اجتماعية اقتصادية يومية تصدر مؤقتا مرة فى الأسبوع للدفاع عن حقوق العمال والفلاحين) .

صدرت مجلة (روح العصر) يوم ١٤ فبراير ١٩٣٠ أثناء وزارة مصطفى النحاس ، معبرة عن الحزب الاشتراكى فى محاولة لاثبات نظرية محمود حسنى العرابى من أن الحزب يمكن أن يبقى بعيدا عن المصادرة إذا لجأ الى العلانية ولم يصبح حزبا شيوعيا سريا .

وكان محمود حسنى العرابى قد مهد لذلك بالكتابة عن الاشتراكية فى الصحف العادية مثل الهلال والحياة الجديدة والمقتطف .

وحصل محمود حسنى العرابى وزميله عصام الدين حفنى ناصف على

ترخيص باصدار جريدة روح العصر (جريدة اشتراكية سياسية اسبوعية) باسم الدكتور عبد الفتاح القاضى الذى كان يدرس فى ألمانيا وتخرج فى جامعاتها طبيبا ، ولم يكن معروفا لدى البوليس اذ لم تكن له صلة بالحزب الاشتراكى الذى شكل فى بداية العشرينات .

وشارك فى تحرير المجلة اسماعيل مظهر الذى حاول جعل المجلة منبرا لتنظيم يطلق عليه اسم (حزب العمال والفلاحين) ولكنه لم يوفق فى ذلك .

كانت (روح العصر) تنظر الى الصراع بين الوفد واسماعيل صدقى على أنه مجرد مسرحية وان (هذه المسرحية ذات الخصائص الفريدة تجرى من أجل متفرج واحد هو المندوب السامى البريطانى اللورد لويد ، فان كلا من محمد محمود والنحاس باشا يحاول أن يقنع المندوب السامى البريطانى بأن حكم مصر ممكن فقط بوساطته هو شخصيا) .

كانت هذه النظرة التى تنكر الصراع من أجل الديموقراطية والذى وضحت معالمه عند تعيين اسماعيل صدقى رئيسا للوزراء والغائه دستور ١٩٢٣ واقراره دستور ١٩٣٠ ، وهو الصراع الذى جذب جماهير الشعب الى ساحته بعد إصرار مصطفى النحاس على زيارة الأقاليم لاستنهاض همة الناس ضد حكم صدقى باشا .

ويفسر الدكتور رفعت السعيد هذا الموقف بقوله فى كتاب (الصحافة اليسارية فى مصر) بالقول بأنه (يتعين علينا أن نعود بالذاكرة الى موقف اليسار العالمى فى هذه الفترة ، فمنذ عام ١٩٢٨ اتخذ الكومنترن فى مؤتمره السادس موقفا يعلن أن البرجوازية الوطنية الصينية قد انتقلت وبصورة نهائية الى معسكر الثورة المعادية ، وبصورة تلقائية انتقل تحليل الوضع فى الصين الى مصر ، وعومل الوفد معاملة الكومنتانج) .

ولاشك أن هذا التفسير لو كان صحيحا فانه يثبت انعزالية مجلة (روح العصر) عن واقع الحياة فى مصر ، وأن تطلعها الى مستقبل أفضل ، يقفز فوق حقائق المجتمع .

ولكن المجلة كانت عنيفة النقد لوزارة اسماعيل صدقى تطلق عليها اسم (الوزارة الطاغية) ، وتحذر من (ان هذه الوزارة يشتد طغيانها يوما بعد يوم ، ولو طال عمرها فستخلق نظاما فى مصر يشبه نظام الفاشيست فى ايطاليا ، نظاما يقوم على العسكرية أو المليشيا فتقتل الكفايات وتخنق الحريات وتتفشى الجاسوسية ، فلابد من مكافحتها فى المهد حتى تقص أطرافها وتقل حدتها فمسايرتها فى خطتها اجرام ليس بعده اجرام) .

لم تعش المجلة طويلا فى عهد اسماعيل صدقى باشا ، اذ صدر قرار باغلاقها فى اغسطس ١٩٣٠ ... والواقع انها كانت قد أفلست .. وفى ذلك قال الدكتور عصام الدين حفنى ناصف للدكتور رفعت السعيد (أحسسنا أننا نفلس ، وأفلسنا فعلا ، وبدلا من أن نغلق المجلة بأيدينا هاجمنا الحكومة بشدة وعنف ، فاجتمع مجلس الوزراء وأصدر قراره باغلاق المجلة) .

وانضمت (روح العصر) الى قافلة المجلات التى أغلقتها وزارة اسماعيل صدقى باشا ، وسافر الدكتور عبد الفتاح القاضى الى المانيا للعلاج ، واضطر محمود حسنى العرابى تحت ضغط المراقبة الى الهجرة من مصر .

وهو يقول فى كتابه (٨٩ شهرا فى المنفى) معبرا عن حالته قبل قرار الهجرة خلال زيارة له الى مدينة الاسكندرية اذ كتب قائلا :

(أحب بلاد مصر الى فيها قضيت زهرة شبابى فيها درست فى العباسية الثانوية فيها ضاربت فى البورصة ، وجمعت عشرات الألوف من الجنيهات ... فيها بدأت حياتى السياسية ، وخطبت فى ألوف من العمال ... طفت فى شوارعها ساعات فكان جوابها صريحا لا ... لا ... الشوارع نظيفة

والعمارات جددت شبابها ، والشمس مشرقة ضاحكة ، والناس رائحون غادون على وجوههم مظاهر المرح والمسرة ... أما أنا فأسير وحدى كسير القلب مهيض الجناح ، لا يأبه لى مار ولا مارة ، كأنه لم يكن لى فيها دولة ، أغريب أنا) .

هاجر محمود حسنى العرابى اذن الى المانيا ، شاعرا بالوحدة ، مؤمنا بعقيدته .. ولكن ثالث الناشرين الدكتور عصام الدين حفنى ناصف قدم الى محكمة الجنايات بتهمة الترويج للشيوعية ، وكانت مقالاته فى (روح العصر) أحد أدلة الاتهام ... وكانت قضيته من القضايا التى هزت مشاعر العاملين فى حقل السياسة وتطوع فيها عدد كبير من المحامين ... وانتهت المحاكمة بحكم تاريخى ... هو البراءة .

ونشرت معظم الصحف النص الكامل لحيثيات الحكم باعتباره تتويجا لدور القضاء المصرى ، وتأكيدا لحق الكتاب فى التعبير عن رأيهم ، وهزيمة لاسماعيل صدقى وأسلوبه فى الحكم .

ولم يحتمل حكم اسماعيل صدقى المعارضة الجارفة من جماهير الشعب بقيادة الوفد .

وحين سقط صدقى تخلى عنه كل شيء : تخلى عنه حزبه . وتخلت عنه جريدته (الشعب) . وتخلت عنه (الأغلبية) التى أوجدها من العدم . وتلك نتيجة طبيعية . فالبناء الذى يقام على السلطان يذهب بذهاب السلطان ، وما تأتى به الريح تذهب به الزوابع !

الصحافة .. ومعركة الدستور والمعاهدة

(ونحن حين نودع الوفد الكريم والهيئة الوفدية العزيزة انما نودعهما فى حظيرة الحزب لنلقاهما من ساعتنا هذه فى حظيرة الوطن)

توفيق دياب

رحل صدقى باشا ، وأراد الملك فؤاد أن يبقى النظام نفسه كما هو ... البرلمان والدستور وحزبى الشعب والاتحاد الذى أسسه على ماهر ويحيى ابراهيم .

واختار عبد الفتاح باشا يحيى وكيل حزب الشعب رئيسا للوزراء ... وكان قد سبق له ان استقال من منصبه الحزبى عندما اختلف مع رئيسه صدقى باشا حول رغبته فى التحقيق فى حوادث التعذيب التى قام بها البوليس فى مدينة البدارى ووصل الامر الى محكمة النقض والابرام التى كان يرأسها عبد العزيز باشا فهمى والذى قال فى حكمه عن أعمال الحكومة بأنها (اجرام فى اجرام) .

استقال صدقى من رئاسة حزب الشعب بعد أن تنكر له الأعضاء والتفوا حول الحكومة ... ولكن الشعب لم يهدأ فى مقاومته للنظام والعدوان على الدستور ... ولم تجد السراى بدا من اخراج عبد الفتاح باشا يحيى وتعيين توفيق نسيم باشا ... وكان وجها مقبولا من الرأى العام الى حد ما .

ووقع أول خلاف بين الوفد الذى كانت الأمور تتغير لصالحه ... وبين روز اليوسف ، الأمر الذى ترويه السيدة روز اليوسف فى كتابها « ذكريات » قائلة انه كان خلافا بسيطا ثم تروى قصة قائلة :

كانت سياسة الوفد تقوم ـ بعد سقوط صدقى ـ على مهادنة المندوب السامى الانجليزى الجديد استنادا الى البوادر التى توحى بأنه سيتخلى عن هذا العهد ويؤيد اعادة دستور ١٩٢٣ ، وعلى العكس من ذلك ظل الوفد على معاداته الشديدة للقصر ومقاطعته للملك فؤاد .. وحدث يوما أن نشرت خطابا مفتوحا الى الملك فؤاد بالمطالبة باعادة الدستور وإنهاء الحالة الشاذة القائمة .

(واستدعانى مكرم عبيد وقال لى : كيف تكتبين خطابا مفتوحا للملك ؟ لقد ظن الناس اننا نريد بذلك مصالحة الملك وهذا غير صحيح ، فمن قال لك بكتابة هذا الخطاب) ..

ودارت بيننا مناقشة طويلة أوضحت له فيها انى لا أعبر عن رأى أحد .. الا عن رأيى الخاص .. وحاولت بعد ذلك أن أقابل النحاس لأشرح له وجهة نظرى فى الموقف السياسى ولكننى لم استطع . اذ كان الأستاذ مكرم عبيد هو الذى يتحكم فى مقابلات النحاس) .

وخلال هذه الفترة التى اشتدت فيها المقاومة الشعبية مطالبة بعودة دستور ١٩٢٣ حدثت تغييرات فى الصحافة المصرية ، فقد استقال الأستاذ محمد التابعى من روز اليوسف وخرج معه مصطفى أمين وعلى أمين وسعيد عبده والرسام صاروخان . الأمر الذى أحدث فى المجلة هزة لم يكن من السهل التغلب عليها كما تقول السيدة روز اليوسف ...

وفى مواجهة ذلك لم تتراجع السيدة روز اليوسف بل قررت اصدار جريدة يومية كبرى تحمل نفس الاسم ، واقنعت الدكتور محمود عزمى بأن يكون رئيسا للتحرير ، وأن يكون من كتابها الأستاذ عباس محمود العقاد (الأول بمرتب ٦٠ جنيها شهريا ويأخذ مكافأة قدرها ٥٠ قرشا عن كل ألف نسخة توزع بعد العشرة آلاف نسخة الأولى ... والثانى بمرتب ٨٠ جنيها .

وكان فى ذلك ضربة لصحيفة الجهاد حيث كان محمود عزمى وعباس العقاد من كتابها البارزين ، وتبعهما توفيق صليب الذى خرج ليعمل سكرتيرا لتحرير روز اليوسف .

أدت هذه الانتقالات الى أزمة عنيفة ... فقد كان كل هؤلاء الكتاب يدورون فى فلك الوفد ... وكانت الجهاد قريبة الى مكرم عبيد ، كما كانت كوكب الشرق المسائية قريبة الى احمد ماهر العضو البارز فى الوفد والذى كان يكتب فيها فى ذلك الوقت .

وعندما قررت السيدة روز اليوسف أن تصدر جريدتها صباحية كان عليها أن تذهب لمقابلة مصطفى النحاس باشا كالعادة المتبعة فى ذلك الوقت ، وبناء على الحاح من الأستاذ عباس محمود العقاد الكاتب الأول فى الصحيفة المنتظرة والذى اشتهر بوفديته .

وافق النحاس باشا على صدورها صباحية لأنها كانت تطبع فى البلاغ الذى كان يصدر مسائيا مع كوكب الشرق .

صدرت جريدة روز اليوسف قوية بأقلام كتابها وتنوع أبوابها وشخصيات محرريها ، وتميزت بأنها أول صحيفة يومية تحمل رسما كاريكاتوريا .

والكاريكاتير حتى ذلك الوقت كان قاصرا على المجلات الأسبوعية ...

صدرت روز اليوسف اليومية يوم ٢٥ مارس ١٩٣٥ لتكون ثالث جريدة وفدية مع الجهاد وكوكب الشرق ، بعد أن كان عبد القادر باشا حمزة قد خرج من الوفد ومعه البلاغ كما ذكرنا .

وخلال هذه الفترة بدأ الوفد يقبل على مرحلة صعود ، فقد شحنت الجماهير بدعوة اعادة دستور ١٩٢٣ ، وخرجت المظاهرات ، وكان الوفد قد

تعرض خلال فترة الغاء الدستور الى محنة عبر عنها الدكتور عبد اللطيف حمزة بقوله فى كتابه عن عبد القادر حمزة :

(وننظر فى محنة الوفد المصرى فى رجاله فى تلك الفترة التى نؤرخ لها. فبعد أن كان رجال هذا الحزب متضامنين فى كفاحهم من أجل قضية الوطن العليا ، وبعد أن كانوا يتناسون ذواتهم فى سبيل هذه القضية ، أصبحوا فى عهد انتكاس الدستور والاخلاق متخاصمين متنابذين ، ينشق بعضهم على بعض ، ويرتاب بعضهم فى بعض ، ويخوض بعضهم فى أعراض بعض . وسرى داء التنابذ الى الصحافة المصرية ، فوجدنا العقاد يترك البلاغ فى سنة ١٩٢٩ ويجاهر بعدائه لهذه الصحيفة التى كتب لنفسه فيها أمجد صفحات حياته . ثم نرى أحمد حافظ عوض صاحب كوكب الشرق ، وأحمد توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد لا يألون جهدا فى محاربة البلاغ بطريقة تسيء الى الأخلاق والى الزمالة والى آداب مهنة الصحافة) .

وأثبتت روز اليوسف اليومية وجودها فى سرعة خارقة ، وأشعلت جوا من المنافسة بين الصحف .

وتقول السيدة روز اليوسف عن هذه الفترة :

ووجدت الصحف أنها لن تستطيع مجاراة « روز اليوسف اليومية » من ناحية السبق بالأخبار أو قوة أسرة التحرير أو جرأة النقد أو جدة التبويب ، فبدأت المنافسة فى النواحى التجارية التى تحتاج الى مال كثير .. وكان صاحب الأهرام فى ذلك الوقت رجلا ممتازا هو المرحوم جبرائيل تقلا .. صاحب الفضل الأول على الأهرام .. فهو الذى اشترى له إحدى الآلات ورسم له سياسة الاستقلال وأدخل كل ما كان فيه من تجديدات أو تحسينات .

وكان أول ما فعلته الأهرام فى هذا الباب ان اشترت سيارات لورى خاصة لنقل الجريد الى الاسكندرية ، فالقطار الذى كان ينقل الصحف كان يصل

هناك الساعة الحادية عشرة صباحا .. ورأى المرحوم جبرائيل تقلا انه اذا استطاع ان يصل بسيارته الى هناك فى الساعة السابعة . أو الثامنة ، فانه يستطيع أن يكتسح السوق هناك .. وفعلا اشترى السيارات وأجرى عدة تجارب لنقل الجريدة قبل تنفيذه كلفته أموالا طائلة .. وكانت هذه أول مرة تستعمل فيها الصحف سيارات نقل خاصة بها .

فماذا نفعل نحن ؟

لم يكن هناك بد من مواجهة الموقف ، ومع ذلك فالمال اللازم لشراء اللوريات ينقصنا . فاستأجرنا تاكسيات تقوم بنقل الجريدة ، نظير ستة جنيهات يوميا للسيارة . وكنا نحتاج الى خمس أو ست سيارات .. أى حوالى ٣٠ جنيها يوميا .. أى ما يقرب من الألف جنيه فى الشهر .. وهو ثمن رهيب .

وهاجمنا المنافسون من جبهة أخرى هى جبهة التوزيع .. وللتوزيع قصة يجب أن تروى ، لأنها جزء من تاريخ الصحافة المصرية ..

وتروى السيدة روز اليوسف بعد ذلك قصة خلافها مع (المعلم على الفهلوى) الذى كان يحتكر التوزيع فى القاهرة .. فى وقت كانت مصر كلها موزعة إلى أربع مناطق يتولى كل منطقة موزع خاص يحتكر العمل فيها .

سحبت روز اليوسف توزيعها من (المعلم على الفهلوى) وأوكلت ذلك الى موزعين آخرين كانت اسماؤهم معروفة ومشهورة فى ذلك الوقت ، مثل المعلم (سيد خضير) متعهد الصحف الأجنبية ، و (ماهر فراج) متعهد الصحف .

وبدأ التوزيع يدخل مرحلة المنافسة بعد مرحلة الاحتكار .

وانتهجت روز اليوسف سياسة مضادة لوزارة توفيق نسيم التى ماطلت فى

اعادة الدستور الى حد ما ، وهى سياسة كانت تتعارض مع سياسة الوفد الذى كان يأخذ موقف المهادنة من أجل اعادة الدستور .

وتدلل السيدة روز اليوسف على سلامة موقفها من أن صحفيا وتاجرا لم تذكر اسميهما حضرا اليها بعرض من دار المندوب السامى البريطانى يعبر عن استعدادها لدفع مبلغ ٥٠٠٠ جنيه دفعة أولى ثم ٢٠٠٠ جنيه شهريا لمدة طويلة وهى فى ذلك الوقت كانت تشكل ثروة كبيرة (اذا أوقفت الحملة نهائيا على الوزارة) على حد كلمات السيدة روز اليوسف التى علقت على ذلك بقولها :

واستفزنى هذا العرض . ولكن شعور الدهشة عندى طغى على شعور الاستفزاز .. فحتى ذلك الوقت كنت أعرف ان الحكومات وحدها هى التى تعرض على الصحف مصاريفها السرية .. ولكنى لم أكن أتصور أن السفارات أيضا تطرق هذا السبيل ، وتدخل الى الصحف والرأى العام من هذا الباب .

ورفضت العرض طبعا . وناقشت الزائرين طويلا فى مغزى تأييد الانجليز للوزارة الى هذا الحد... وقلت ان هذا يؤيد الرأى الذى تدعو اليه « روز اليوسف » من أن هذه الوزارة صنيعة للانجليز .

وزادت الخلافات بين الوفد وروز اليوسف وأرسلت السيدة روز اليوسف خطابا الى مكرم عبيد سكرتير عام الوفد محاولة تفسير موقفها ولكنها تلقت منه ردا يشير الى أن مصطفى النحاس قد أعطى كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ثم قال :

(وانك لتعلمين أن الوفد لا يحجر على حرية انسان ما ــ أو صحيفة ما ــ ولكن اذا رأت إحدى الصحف المنتمية الى الوفد ان تنتهج خطة تغاير خطة الوفد ، فعليها أن تتحمل نتائج ما تنتهج) .

وانتهى الأمر الى تبادل حملات اعلامية بين الجهاد وروز اليوسف تضمنت

تلميحات واتهامات شخصية ... ووصل الأمر الى اصدار الوفد بيانا للأمة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥ يعلن فيه ان روز اليوسف لم تعد تمثل الوفد فى شيء وأنه لا صلة له بها .

وهكذا خرجت روز اليوسف اليومية من فلك الوفد بعد ٦ أشهر بالتحديد من صدورها ، وقد أثر ذلك عليها تأثيرا شديدا اذ قامت المظاهرات فى الشوارع ضدها وانصرف الناس عن شرائها ، وخرج محمود عزمى رئيس التحرير الذى كان يحرص على اقامة علاقات طيبة مع مختلف الأحزاب ، كما خرج عباس محمود العقاد بعد ٣ أشهر فقط من بيان الوفد الذى أبعد فيه روز اليوسف .

ولم تحتمل روز اليوسف اليومية كل هذه الضغوط فتعثرت فى الصدور ولم تنتظم حتى ألغيت رخصتها بعد أن كان الوفد قد وصل الى الحكم بعد انتصار الانتفاضة الشعبية التى أعادت دستور ١٩٢٣ .

وكانت عودة دستور ١٩٢٣ مقترنة بالحرب التى نشبت بين الحبشة وايطاليا وظهور احتمالات حرب عالمية فى الأفق لم يشأ الاستعمار البريطانى أن يواجهها فى مصر ودستورها مهدر ، وشعبها فى موقف معاد للسراى والاحتلال معا .

ولم يقف الأمر عند حد عودة الوفد للحكم فقط ، ولكنه امتد الى حد عقد معاهدة مع البريطانيين انضم اليها مختلف الزعماء تحت رئاسة مصطفى النحاس .

وقد عقدت معاهدة ١٩٣٦ فى ظروف كان الاحتلال البريطانى يجابه فيها موقفا لم يتعرض له من قبل ... تناقضات الامبريالية العالمية تشتد وتقترب من حرب عالمية ... ايطاليا تغزو الحبشة وتنتصر عليها والامبراطور هيلاسيلاسى يهاجر الى انجلترا ... والنازية تصل الى الحكم فى ألمانيا ... الحركة الوطنية

تشتعل من جديد ضد دستور صدقى ، وتعم المظاهرات مصر ، ويسقط عدد من الشهداء .

ووصف النحاس باشا هذه المعاهدة بأنها (وثيقة الشرف والاستقلال) ولكنها لم تكن كذلك ... فقد كان فى بنودها سلبيات وايجابيات .

وكانت فكرة تحالف الزعماء موضع نقد حتى من جانب الصحافة الوفدية التى رفضت أن يجلس مصطفى النحاس مع الذين قبلوا اهدار دستور ١٩٢٣ مثل محمد محمود واسماعيل صدقى .

وكانت صحيفة الجهاد من أبرز الصحف وضوحا فى هذا المجال .

ولكن مظاهرات نوفمبر وديسمبر ١٩٣٥ التى سقط فيها عدد من الشهداء دفعت زعماء الأحزاب الى التحالف واجتمعت الصحافة حول تأييدهم فى مواجهة الاستعمار البريطانى .

ولكن ... ما كادت تعقد المعاهدة حتى أقيلت وزارة الوفد التى أتت بها الانتخابات فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧ وكان الملك فاروق قد تولى سلطاته الدستورية فى ٢٩ يوليو فى ذلك العام وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

وانعكست إقالة الوفد على صحافته ، وبعد أن كانت روز اليوسف قد توقفت بعد الخروج عليه ، فان (الجهاد) التى كانت سببا فى موقف الوفد من روز اليوسف سرعان ما لحقت بها ، وخرجت عن الوفد أيضا .

وكانت الأزمة التى نشبت بين أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وبين الوفد سببا من الأسباب التى دفعت بالجهاد الى الخروج على الوفد ... ولم يكن الأمر كذلك فى بداية النزاع ، بل أن الجهاد هاجمت كلا من أحمد ماهر والنقراشى ، وكان الاثنان قد خرجا من تشكيل الوزارة الوفدية التى أعيد تشكيلها فى ٤ أغسطس ١٩٣٧ .

وكان الخلاف قد تكشف تماما حينما أخذ النقراشى يهاجم مصطفى النحاس ومكرم عبيد فى المحافل العامة ، وعلى صفحات الصحف المصرية والانجليزية . وقد أرجع أسباب خلافه الى « ديكتاتورية » رئيس الوفد واستبداده برأيه ، وأن سياسته أصبحت « سياسة ظلم تعتمد على العنف لكسب الأنصار » . ومعارضته لفرق القمصان الزرقاء التى أصبحت تشكيل تهديدا للحريات العامة والخاصة ، وللحياة الدستورية السليمة . وقد نشر النقراشى بيانا فى الصحف المصرية فى ٧ سبتمبر أعلن فيه خروجه على رئيس الوفد وسياسته . وفى ١٣ سبتمبر من نفس العام اجتمعت الهيئة الوفدية برئاسة مصطفى النحاس وقررت اعتبار النقراشى منفصلا عن الهيئة الوفدية . وقد أجمعت الهيئة على هذا القرار ، فيما عدا أحمد ماهر الذى لم يوافق عليه وقرر أنه يعتبر النقراشى لا يزال عضوا فى الوفد .

أخذت (الجهاد) تهاجم النقراشى وموقفه هجوما عنيفا ، ردت فيه هذا الموقف إلى أسباب شخصية أهمها استبعاده من الوزارة .

أما عن خلاف الحزب مع أحمد ماهر فقد بدأ منذ موقفه السابق فى اجتماع الهيئة الوفدية البرلمانية وقد علقت (الجهاد) على هذا الموقف تحت عنوان (الدكتور أحمد ماهر يتمرد على الوفد ونظامه) .

وأخيرا اتخذ حزب الوفد قرارا اجماعيا بفصل أحمد ماهر ، فى ٤ يناير سنة ١٩٣٨ . وذلك عقب موقفه العنيف فى البرلمان من مصطفى النحاس ، ومن الشيوخ والنواب . وما تلا ذلك من تصرفات مسيئة للمجلس وهيبته والعرف الجارى فيه . وقد نشرت (الجهاد) تفاصيل تلك الأنباء تحت المانشيت الضخم التالى (نهاية الدكتور ماهر – ثورته على حقوق مجلس النواب وثورة المجلس لحقوقه . مجلس الشيوخ يتمتع بحق التعليق على تأليف الوزارة ودستورية التأجيل . الوفد يفصل الدكتور ماهر وقد طفح الكيل) .

ومع وضوح موقف الجهاد ضد أحمد ماهر والنقراشي الا أنه كانت هناك توترات فى العلاقة مع الوفد الذى لم يدرج اسم توفيق دياب فى قوائمه ومع ذلك فاز فى دائرة (سنهوا) فوزا ساحقا ... وكذلك لم يدرج الوفد اسمه فى المطلوب الانعام عليهم بالرتب فى مايو ١٩٣٦ بمناسبة تولى الملك فاروق للعرش ... وكذلك تشجيع بعض أعضاء الحزب لاصدار صحيفة (المصرى) وصدور صحيفة (كوكب الشرق) صباحية مما كان له أثر على توزيع (الجهاد) .

أعلن توفيق دياب موقفه الجديد قائلا :

(ونحن حين نودع الوفد الكريم والهيئة الوفدية العزيزة ، إنما نودعهما فى حظيرة الحزب لنلقاهما من ساعتنا هذه فى حظيرة الوطن) .

ودخلت صحيفة (الجهاد) مرحلة الأزمة الشديدة .

ترتب على هذا الاضطراب أن أخذ توزيع الصحيفة فى الانخفاض تدريجيا . كما ترتب عليه انخفاض مستوى المادة التحريرية بها والاعلانات التى تنشرها بدرجة كبيرة ، حتى بلغت خلال فترة استقلالها الحزبى الى الثلث تقريبا . وصارت الجريدة تصدر فى ١٢ صفحة فقط بدلا من ١٦ صفحة . وقد كان لهذه الأسباب ، الى جانب الضيق المالى والديون التى كانت تسددها لبنك مصر وفاءً لثمن مطابعها وآلاتها الجديدة التى استوردتها من ألمانيا ، ان اضطر توفيق دياب الى الموافقة على احتجاب صحيفة (الجهاد) فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٨ وادماجها مع صحيفة (كوكب الشرق) فى جريدة الوفد المصرى ، احتجبت بعد أقل من خمسة أشهر من اصدارها لخلافات مالية بين مكرم عبيد وتوفيق دياب بشأن سداد ديون الأخير قبل بنك مصر . فاضطر توفيق دياب لإعادة اصدار (الجهاد) مرة أخرى فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٧ . ولكنها لم تستطع الاستمرار فى هذه المرة الا لمدة شهر واحد . كان

همها الأول خلاله ، مهاجمة مكرم عبيد والحملة عليه وعلى تصرفاته . ثم صدر قرار اغلاق الجهاد ، فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٩ .

وهكذا انضمت (الجهاد) الى روزاليوسف اليومية وكوكب الشرق التى أغلقت أبوابها جميعا لتناقضات ظهرت بين قيادات الوفد وبين أصحاب هذه الصحف الذين كانوا يحرصون على رأيهم المستقل أحيانا .

ومن الأمثلة التى تظهر حدة الخلافات القائمة على غير منطق ، ما قام به عباس محمود العقاد من حملات عنيفة على الوفد ومصطفى النحاس ، بعد أن انضم الى البلاغ الذى كان قد خرج على الوفد أيضا .

انضم الى كتاب البلاغ فى اكتوبر ١٩٣٧ وتعددت مقالاته الهجومية حتى وصلت الى حد نشر مقال بتاريخ ٣ أغسطس ١٩٣٨ تحت عنوان (جنون النحاس باشا) .

وفى مقابل ذلك كان محمد التابعى يدافع عن مصطفى النحاس بقوله خلال حكم الوفد عام ١٩٣٧ وأثناء أزمة ماهر والنقراشى التى حاولت أحزاب الأقلية فيها والعناصر الوفدية التى أغراها القصر بالخروج على زعامة الوفد تصوير النحاس باشا بأنه طاغية .

كتب محمد التابعى يقول كما ورد فى كتاب الدكتور عبد العظيم رمضان (الفكر الثورى فى مصر قبل ٢٣ يوليو) :

« يحز فى نفوسنا ــ نحن الوفديين ــ أن زعيمنا حاكم ضعيف ! ، وأنه وضع الدستور عن يمينه ، والقانون عن يساره ، وعمامة ابن حنبل فوق رأسه ، ثم أقسم على المصحف ليحترمن أحكام الدستور والقانون ولو شنقوه !

« قيد مصطفى النحاس باشا نفسه بنفسه ، واختار أن يكون حاكما ضعيفا ، فى وقت كان يخل فيه شيء من الاستبداد . والعاجز من لا يستبد !

« مصطفى النحاس الدكتاتور الطاغية – كما يصفه المعارضون – كل عيبه عندنا ، نحن أنصاره ، أنه لا طاغية ، ولا دكتاتور ، ولا يحزنون . كل عيبه أنه ، وهو يستند الى أغلبية قل أن يفوز بها زعيم من قبله ، قد اختار أن يترك أقلية قل أن يوجد مثلها فى هزالها وضعفها ، تتحكم فيه ، وأن تشغله بصخبها وصياحها وضجيجها عن الاهتمام بشئون الدولة ، وهو لو شاء ليستطيع أن يبطش بها ويمسحها من اللوح ويذرو ترابها للريح .

« ولكنه – مصطفى الطاغية – ليستغفر ويحوقل ، ويهز عمامة ابن حنبل ، ويمد يده الى الدستور والقانون ليرى حكم الدستور والقانون .

« وما أفلح حاكم ، ولن يفلح حاكم يختار لنفسه هذه الطريق الضيقة .. ليت مصطفى النحاس أدنى شيئا من بطش صدقى ، أو « عنطزة » محمد محمود ! ليته كان طاغية بحق وحقيق ، اذن لاسترحنا واستراح البلد ، بل لاستراح الدستور والقانون ، واستقرت الأمور وانتظم الحكم ومشت أسباب الاصلاح فى هذا البلد .

« صحفى منا كان يحك قصبة أنفه لحر دستورى لا فى العير ولا فى النفير ، فكانت تقوم وزارة الداخلية . تقوم على قدم واحدة ولا تقعد . وكانت ادارة الأمن العام تقوم على قدم واحدة ولا تقعد – حتى تتعطل الصحيفة وتصادر أعدادها ويزج الصحفى فى السجن تحت اذن المحقق بضعة أيام .

« وصحفى يقول اليوم لمصطفى النحاس انه يتجر بالوطنية ، وانه يهدر كرامة البلد ، وانه يبيع الوطن للانجليز ، ويشترك مع زملائه الوزراء فى نهب أموال المصريين . فيستشير مصطفى النحاس الدستور والقانون ، وتتحرك النيابة بعد بضعة أيام ، ويبدأ التحقيق بعد بضعة أيام ، ويقدم الصحفى للمحاكمة بعد بضعة أشهر ، ويصدر الحكم بعد عام ، وتقدم عن الحكم

معارضة أو استئناف . هذا والصحفى وزملاؤه جادون فى اللطم واللطش وحملة التجريح .

أو يستشير مصطفى النحاس نبى الرحمة والصفح عيسى بن مريم ، ومن ثم يدير بعدها خده الأيسر بعد خده الأيمن !

« ما هكذا الحكم يا زعيم الأغلبية ، يا ديكتاتور !

« أحكم ! أحكم كما يحكم الحاكمون الأقوياء ! أحكم ، أو لتترك الحكم للأقوياء القادرين » .

وهكذا كانت اقالة الوفد على غير انتظار سببا فى حدوث تغيرات فى الصحافة المصرية .

وإذا كانت (الجهاد) قد اختفت ، فان صحفا أخرى مصرية كانت قد ظهرت ... أبرزها صحيفة (المصرى) التى صدرت فى ١١ أكتوبر ١٩٣٦ صباحية مستقلة منافسة لجريدة الأهرام ... ومن قبل كانت قد ظهرت صحيفة السياسة التى رأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل معبرة عن حزب الأحرار الدستوريين .

وجريدة (المصرى) نشأت عن شركة تجارية كان يملكها ثلاثة من البارزين فى حقل الصحافة (محمود أبو الفتح ومحمد التابعى وكريم ثابت) .

كان اختيار اسم (المصرى) له دلالة على الرغبة فى تأكيد الهوية المصرية فى الصحافة الى جانب الهوية السورية التى أسهمت فى اظهار عدد كبير من الصحف فى مصر مثل الأهرام والمقطم ودار الهلال وغيرها ... وهو اسم لمجلة كان قد أصدرها سلامة موسى فى الثلاثينات وأغلقت أبوابها .

ورغم الخلاف الفكرى الكبير بين الشركاء الثلاثة ، الا أن الأمور مضت فى الجريدة على خير ما يرام ، فأثبتت وجودها ، ونافست الأهرام فعلا ،

وعبرت عن سياسة الوفد لمدة سنتين ..

وتروى السيدة سهير اسكندر فى رسالتها عن (جريدة المصرى) نقلا عن الاستاذ حسين أبو الفتح قصة التحول فى ملكية الجريدة فتقول :

(ان كريم ثابت ومحمد التابعى استمرا سنتين فى المصرى وعندما أصاب التابعى الملل من الخلافات باع كل حصته للوفد ، أما كريم ثابت فباع $\frac{٢}{٣}$ حصته واستبقى الثلث ، أما محمود أبو الفتح فقد باع الثلثين واستبقى الثلث ليكون للوفد أغلبية فى تصريف شئون الجريدة . وعندما احتاج الوفد فى سنة ١٩٣٨ للمال حيث كان مكرم عبيد سكرتير عام الوفد وقتها مرشحا لأن يكون نقيبا للمحامين ، انتهز محمود أبو الفتح الفرصة واشترى حصة الوفد بالكامل . وكان لديه احساس أنه سيحيى الجريدة ، وأصبح منذ عام ١٩٣٨ مسئولا عنها ، حيث باع كريم ثابت حصته ليتفرغ للمقطم ، وأكتفى التابعى بآخر ساعة .

ويقول الأستاذ ابراهيم فرج : ان تنازل الوفد لمحمود أبو الفتح عن حصته فى ملكية الجريدة كان مقابل أمرين : أمر مادى وهو أن يدفع للوفد مبلغ خمسة آلاف جنيه نقدا ، وشرط أدبى وهو أن تكون الجريدة ممثلة لسياسة الوفد ، ويتعهد بتنفيذ جميع التوجيهات والتعليمات التى يراها الوفد محققة لهذا الغرض .

وقد اختير ابراهيم فرج ليشرف على تنفيذ هذا الاتفاق . ويرى الأستاذ ابراهيم فرج أن الاتفاق قد تم بكل أمانة ، وكان الأستاذ محمود أبو الفتح حريصا كل الحرص على تحقيق كل ما يطلبه الوفد .

ومحمود أبو الفتح كان هو الصحفى الوحيد الذى رافق الوفد المصرى الى باريس عام ١٩٢٠ وكان يعمل وقتها فى جريدة وادى النيل بالاسكندرية .

وعمل محمود أبو الفتح بعد ذلك فى صحيفة الأهرام ، وكان يحصل على أكبر مرتب لمحرريها الى أن استقال ، لأن أصحاب الجريدة فضلوا أن يكون رئيس تحريرها انطون الجميل .

ورغم أن محمود أبو الفتح لم يكن مشهورا بعراقة وفديته ، الا انه كان ملتزما بذلك الى حد كبير فى جريدة (المصرى) ، لأن الارتباط بالوفد كان مازال شرطا رئيسيا لنجاح واستمرار أية صحيفة .

وهكذا استقرت (المصرى) كصحيفة يومية متطورة وناجحة ومعبرة عن الوفد فى هذه الفترة التى كان العالم يقترب فيها من الحرب العالمية الثانية .

الصحافة والمد الثورى

(نحن نجاهد لكى لا يندم احد على الحياة)
الفجر الجديد ـ ١٩٤٥

لم تكد تمضى سنتان على اقالة وزارة الوفد حتى قامت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ ، وبادر على ماهر باشا الذى كان قد تولى رئاسة الوزارة بعد رئاسة الديوان الملكى عقب اقالة محمد باشا محمود الى اعلان الأحكام العرفية تنفيذا لمعاهدة ١٩٣٦ ، والتى قضت بتوقيع عقوبات شديدة على كل من يرتكب أضرارا ببلد حليف أو شريك لمصر فى العمل ضد عدو مشترك ، وكان الغرض هو حماية انجلترا حماية كاملة ، ثم كان العبث بالدستور واقالة حكومة الوفد فاتحة لمزيد من العبث ومزيد من الاقالات ... حتى على ماهر نفسه لم ينج منها عندما تلكأت وزارته فى موقفها ازاء رعايا ايطاليا التى أعلنت الحرب فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ ، فأجبر على الاستقالة فى ٢٨ يونيو ، وخلفه حسن باشا صبرى على رأس وزارة من الدستوريين والسعديين والحزب الوطنى الذى اشترك فى الحكم لأول مرة ، لأنه كان يرفض دائما الاشتراك فى الحكم قبل اتمام الجلاء .

وكانت الصحافة هى أولى الجهات التى تعرضت لقيود الأحكام العرفية ، وعادت الأمور تقريبا الى ما كانت عليه خلال الحماية على مصر وقبل اعلان دستور ١٩٢٣ ، وعادت سلطة الرقيب .

ولم تصدر خلال السنوات الأولى للحرب صحف جديدة ذات شأن ، فقد كان كل شىء مكبلا برؤية الحلفاء والاستعمار البريطانى .

وكان اهدار الملك للدستور وفرضه لأحزاب الأقلية عاملا من عوامل زيادة الشعور المعادى لبريطانيا مع استمرار الحرب ، وفشلت أحزاب الأقلية فى قيادة الدولة ، حتى بلغت أزمة التموين حدا أشاع القلق والسخط ، واطلق المظاهرات فى شوارع القاهرة ، وأجبر بريطانيا على الاقتناع بضرورة رفع الحظر الذى فرضته على السراى ضد حكم الوفد .

كان الاستعمار البريطانى على حذر شديد من قيام ثورة شعبية فى مصر ضد صفوفه الخلفية ، ولذا فانه عندما ظهر فى الأفق خطر الهجوم النازى ، رأوا أن يعيدوا الوفد الى الحكم ضمانا لسيطرته على الشعب فى هذه المرحلة الحاسمة ، وخاصة بعد أن كان الملك وبعض المحيطين به على استعداد كامل للتعاون مع الغزاة الفاشيين والنازيين .

ولما تلكأ الملك فاروق فى الاستجابة لارادة الحكومة البريطانية لاستمرائه الحكم فى ظل حكومات ضعيفة تابعة ، ولأمله فى أن يتغير مسار الحرب لصالح المحور ، قدم السفير البريطانى انذارا للملك يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ بعد أن كانت وزارة حسين سرى قد استقالت يوم ٢ فبراير ... وحاول رئيس الديوان احمد حسنين المراوغة لتشكيل وزارة قومية رغم مقابلة السفير له يوم ٣ فبراير ، وطلبه أن يعهد الى النحاس بتشكيل الوزارة ، وهو تدخل كان يعتبر حتى هذه اللحظة طبيعيا فى مجال السياسة المصرية ... ولكن مراوغة الملك استمرت حتى يوم ٤ فبراير فقدم السفير انذارا هذا نصه : (اذا لم أعلم قبل السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعات ما يحدث) ... ولما لم تتم استجابة فورية لذلك حاصرت الدبابات قصر عابدين فى الساعة التاسعة مساء ، ودخل السفير وقائد القوات البريطانية وأمامهم ثمانية ضباط يحملون المسدسات ، ودخل السفير على الملك فى مكتبه وكان بجواره أحمد حسنين فخيره بين التنازل أو تشكيل وزارة وفدية فقبل الحل الثانى فورا .

أدت مظاهرة السفير العسكرية ، ودعايات أحزاب الأقلية الى الاساءة للوفد ، وأصبح ٤ فبراير مطعنا يطعنه منه كل معاد له أو كل من لم يكتشف حقيقة دور السراى المتعاونة مع السلطة الأجنبية فى الجذور ، أو الذين جرفتهم الوطنية الى قبول الأفكار الفاشية دون بحث أو تمحيص .

لم تكن الفرصة متاحة امام الصحافة لممارسة دورها كاملا ، فقد كان سيف الأحكام العرفية قادرا على منع التجاوزات ، ومع ذلك يقول الدكتور ابراهيم عبده فى كتابه (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٨١) :

(تعتبر هذه الفترة من تاريخ الصحافة المصرية من عام ١٩٤٠ الى عام ١٩٥٢ أزهى الفترات التى عاشتها صحافتنا فقد كانت تعيش فى ظل الأحكام العرفية معظم هذه الحقبة أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم عدة سنوات أخرى خلال حرب فلسطين .

وبالرغم من الرقابة العنيفة التى فرضت على هذه الصحافة بمقتضى الأحكام العرفية ، واستغلال جميع الأحزاب لهذه الرقابة التى كبتت كل رأى وحاربت كل فكر ، فان الصحفيين عاشوا أحداث تلك الأيام مجاهدين أبطالا ، وكافحوا طغيان الحاكم بلباقة مكنتهم من تسجيل عورات النظام ، وكشف المستور من سوءاته،وبيان وجه الحق فى المسائل العامة التى كانت تهز أعصاب المواطنين وتؤرق حياتهم فى تلك الأيام .

وكان هناك نحو مائة جريدة ومجلة معظمها تصدر باللغة العربية) .

وفى هذه المرحلة كانت حكومة الوفد تواصل مسارها ، بعد أن انجذب مكرم عبيد سكرتير الوفد الى السراى ونشر فى الأهرام مقالا يقول فيه عقب مقابلته للملك يوم ١٣ مارس ١٩٤٢ (لم ألبث طويلا حتى أدركت ان ملكنا الشاب قد ملك زمام الأمور بفضل ما أوتى من رجولة مبكرة وخبرة منوعة نادرة قلما أتيحت لملك من الملوك فكان يتنقل من موضوع إلى آخر ومن نصح

الى نصح فى عطف ووداعة وصراحة أخاذة ونفاذة) وشكل حزب (الكتلة الوفدية) التى أصبحت حزبا من أحزاب الأقلية المنفرطة أساسا من مسبحة الوفد ، وتعرض الوفد خلال هذه الفترة الى حملات شديدة ضد سياسة المحسوبية والاستثناءات التى انتهجها لخدمة انصاره بعد أن أقصى عن الحكم أكثر من خمس مرات .

ولكن الوزارة الوفدية استطاعت خلال حكمها ان تقدم انجازات ذات تأثير اجتماعى هام ، مثل اصدار قانون مجانية التعليم الابتدائى ، وانشاء جامعة الاسكندرية ، وديوان المحاسبة ، واستخدام اللغة العربية فى مكاتبات الشركات ودفاترها ، واصدار قانون استقلال القضاء ، وخفض الضريبة المربوطة على صغار المزارعين ووضع مشروع المجموعات الصحية ، واصدار قانون عقد العمل الفردى ونقابات العمال .

وخلال هذه الفترة ظهرت بعض الصحف اليسارية التى بدأت موجتها تظهر فى ٢٥ مارس ١٩٣٧ عندما ظهرت جريدة (شبرا) سياسية اجتماعية اسبوعية يصدرها ويرأس تحريرها محمد عبد الحميد عبد الله المحامى واعتبرت نفسها جريدة العمال (ترحب بما يرد لها من العمال وانصار العمال) ... وكان احد ابرز كتابها عصام الدين حفنى ناصف الذى ظهر فى عددها الثانى وسلامة موسى الذى كتب فى عددها الثالث .

ويقول الدكتور رفعت السعيد فى كتابه (الصحافة اليسارية فى مصر ١٩٢٥ - ١٩٤٨) :

وعلى أية حال فان « شبرا » قد ظلت ابتداء من العدد الثانى الصادر فى ١/٤/١٩٣٧ ، وحتى العدد ٢٥ الصادر فى ١٦ سبتمبر ١٩٣٧ منبرا ترددت الأفكار اليسارية والاشتراكية على صفحاته بصراحة ووضوح بحيث كانت هذه الأفكار هى السمة الأساسية والمميزة لهذه الصفحة فى ذلك الحين .. وبحيث

يمكن الاطمئنان الى نسبتها الى قوائم « صحف اليسار » أما بعد ذلك وابتداء من العدد ٢٦ الصادر فى ١٩٣٧/١٢/١٦ فقد تحولت « شبرا » الى مسار جديد واختفت من صفحاتها أية مسحة يسارية .

ويرى الدكتور رفعت السعيد فى كتابه قصة الصراع بين الوفد وبين هذه الجريدة وخاصة عصام حفنى ناصف الذى يدافع عن الطبقة العاملة دفاعا جاء فيه :

(أيها العمال .. انتم الآن غير أحرار من الوجهة الاقتصادية ، وليس فى استطاعتكم ان ترقوا سلم المراتب الاجتماعية . انتم تبيعون عملكم بقيمة لا تسمح لكم بالمعيشة فى المستوى المألوف ، فلا يمكنكم الاستقرار حتى فى انتاج القدرة على العمل ، وهكذا يلحق بكم التلف فى سن مبكرة فتزداد وسائل استغلالكم والسيطرة عليكم ، وتعيشوا فى البؤس والشقاء والعبودية والجهل والقسوة والانحلال الخلقى .

وان حالة العامل المصرى الاقتصادية هى أصل البؤس الاجتماعى ومنشأ الاستعباد بجميع اشكاله وعلة التدهور الخلقى والاستعباد السياسى) .

وهو يعلم أن الوفد بما له من نفوذ يقاوم محاولته ، ولهذا فانه يتوجه حتى الى العمال الوفديين « ليس للمسائل العاطفية والحزبية موضع ، ولا معنى لضياع الوقت وليست قضية العمال قضية فرعية ، بل هى قومية واجتماعية تشمل الجميع وتطرح فى سبيلها التفرقات بين شتى الألوان ... واعلموا ان كفاحكم ليس الا كفاحا فى سبيل الحضارة وان به وحدة تكتمل انسانيتكم جسما وروحا » .

ويقول الدكتور رفعت السعيد إن الأعداد التى صدرت من مجلة (شبرا) خلال فترة سيطرة عصام ناصف عليها كانت وبحق ، نموذجا فريدا لكفاح الحركة اليسارية عندما تستخدم منبرا غريبا عنها ، ثم تتحكم فيه ، وتلوى عنقه

ليخدم مصالحها .. لكن ذلك ـ بالضرورة ـ لا يمكن أن يستمر طويلا ..

ولكن مجلة (شبرا) لم تستمر طويلا فى خطها ، انسحبت .

وتصدر مجلة شهرية يسارية اسمها (التطور) فى يناير ١٩٤٠ يرأس تحريرها أنور كامل تحت شعار يقول : « نحن نؤمن بالتطور الدائم والتغيير المستمر .. »

« نحن نقاوم الأساطير والخرافات ونكافح القيم المتوارثة .. التى وضعت لاستغلال قوى الفرد فى حياته المادية » .

وضمت هذه المجلة الى جانب رئيس التحرير الفنان كامل التلمسانى وجورج حنين الذين اسسوا جماعة (الفن والحرية) التى تشكل مجلس ادارتها من أنور كامل رئيسا ودكتور عبد العزيز هيكل واسعد حليم وفتحى الرملى وصالح عرابى .

حاول أنور كامل استخدام (التطور) كمنبر يتبلور حوله اتجاه مصرى يسارى ... ولذا فقد انفصل عن جورج حنين وشكل جماعة (الخبز والحرية) .

وهنا سحب جورج حنين ضمانه المالى فتوقفت المجلة بعد عددها الخامس ... وهاجر حنين الى فرنسا حيث مات فى اغسطس ١٩٧٣ .

ورغم الأعداد المحدودة التى صدرت من (التطور) الا أنها قد أسهمت بدور فى ابراز الفن التشكيلى ، وكانت موجهة أساسا الى المثقفين المصريين .

وعن سنوات الحرب العالمية الثانية يقول الأستاذ حافظ محمود إنها (أنست الصحفيين روح العراك) .

ولكن ما كادت الحرب العالمية الثانية تأتى الى نهايتها ، وما كادت حكومة

الوفد توقع بروتوكول انشاء الجامعة العربية حتى صدر قرار اقالتها يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤ .

وبدأت الصحافة تدخل مرحلة ساخنة .

ونشطت الصحافة اليسارية فى الظهور والتعبير .

وفى ١٦ مايو ١٩٤٥ صدر العدد الأول من مجلة (الفجر الجديد) وكانت فى البداية نصف شهرية واستمرت كذلك حتى العدد الثانى عشر الصادر فى ١ نوفمبر ١٩٤٥ ، عندما أعلنت (الفجر الجديد) أنها سوف تصدر بعد ذلك أسبوعية .. وتعلن فى رسالة حماسية توجهها لقرائها « تعمل لجنة التحرير الآن لاعداد (الفجر الجديد) لأن تصدر أسبوعية اجتماعية ثقافية .. وهى اذ تقدم على هذه المسئولية الضخمة تثق بكم وتتوجه اليكم .. ايها الأصدقاء إننا نكافح لنخلص حياتنا جميعا من كل ما يسىء الانسان ويحد من حريته .. ونحن موقنون بأننا سننجح فى مهمتنا لأننا نؤمن بعملنا وأهدافنا ونؤمن بشعبنا وبالشعوب الأخرى .

ظهرت (الفجر الجديد) تحمل شعار (مجلة الثقافة الحرة) وهذه الكلمات (نحن نجاهد لكيلا يندم أحد على الحياة ... ورأس تحريرها الكاتب أحمد رشدى صالح الذى صدر ترخيص المجلة باسمه ... وكان من كتابها الدكتور على الراعى وأبو سيف يوسف ونعمان عاشور وصادق سعد ومحمد اسماعيل .

وكانت المجلة قد أصبحت ذات تأثير بين المثقفين المصريين ، الأمر الذى دفع البوليس السياسى الى اعتقال بعض محرريها ومصادرة أعداد منها .

وكانت المجلة قد فتحت صفحاتها أمام كتاب من مختلف المجموعات الماركسية يذكرهم الدكتور رفعت السعيد فى كتابه (الصحافة اليسارية فى

مصر) فيقول :

نلاحظ ان كتابا كثيرين من ايسكرا ومن الحركة المصرية للتحرر الوطنى قد شاركوا فى تحريرها أمثال محمد خليل قاسم ، كمال عبد الحليم ، أنور سعيد خيال ، ابراهيم سعد الدين ... الخ .

كذلك فقد فتحت (الفجر الجديد) صفحاتها للعديد من الشعراء والكتاب التقدميين العرب : عبد المعين الملوحى ، رئيف خورى ، مخلص عمرو ، عدنان البنى ، وصفى البنى ... الخ .

اقترن ظهور هذه المجلة اليسارية بظهور جمعيات ومنتديات وتنظيمات يسارية مثل (دار الأبحاث العلمية) ، (لجنة نشر الثقافة الحديثة) ، (دار القرن العشرين) .

ويمكن تحديد موقفها من الوفد بهذا المقال الذى كتبه أبو سيف يوسف فى ١٦ يوليو سنة ١٩٤٥ .

ومع أن الوفد كان يمثل الطبقة البرجوازية المتقدمة ، الا ان امكانيات هذه الطبقة قد أخذت تضعف بانعزالها شيئا فشيئا عن الشعب ، وبظهور طبقة شعبية أخرى هى الطبقة العمالية .. وكان أن تغلبت العناصر اليمينية على سياسة الوفد ووجهتها . وكانت النتيجة أن أصبح أميل من ذى قبل الى التفاهم مع المستعمر . ومنذ أقيلت الوزارة الوفدية الأخيرة وسياسة الوفد مطبوعة بطابع التردد ازاء المستعمر وازاء المشاكل الداخلية على السواء . فهو فى كفاحه للمستعمر يقف عند حد ارسال مذكرة ضعيفة للسفارة البريطانية ، ثم تعلن صحفه بعد هذا أن الوفد قد أدى واجبه كاملا غير منقوص . ثم يصدر بيانا أقوى يوجهه الى الأمة المصرية وتعلن صحفه مرة أخرى ان الوفد قد أبرأ ذمته وأدى واجبه ، أما فى الداخل فهو لا يعرف كيف يدافع دفاعا سليما عن حقوق الشعب وحرياته الأساسية .

وكانت حكومات الأقلية التى شكلت بعد اقالة حكومة الوفد قد تعثرت ... فأحمد ماهر رئيس الوزراء صرعته رصاصات محمود العيسوى فى دار البرلمان ، ومحمود فهمى النقراشي استبدل باسماعيل صدقى بعد مذبحة كوبرى عباس فى فبراير ١٩٤٦ ، واسماعيل صدقى يحاول وضع قبضته الحديدية فى قفاز من الحرير ، ولكنه لا يتحمل المعارضة الشعبية وظهور الاتجاهات اليسارية فى الصحافة عموما .

وكانت (اللجنة الوطنية للعمال والطلبة) التى انبثقت من الكفاح الشعبى اعلنت يوم ١١ يوليو ١٩٤٦ (ذكرى ضرب الانجليز للاسكندرية عام ١٨٨٢) يوما للحداد العام وبدء الجهاد الوطنى .

وهنا أسفر صدقى عن وجهه الحقيقى وقام فى اليوم السابق على الاضراب باعتقال حوالى مائتين من الكتاب والصحفيين وزعماء اللجنة الوطنية ونقابات العمال والطلبة ، وأغلق كثيرا من دور النشر والجمعيات الجديدة ذات الطابع التقدمى مثل دار الأبحاث العلمية ، ولجنة نشر الثقافة الحديثة ، ودار القرن العشرين ، والجامعة الشعبية الأهلية ، واتحاد خريجى الجامعة ، وجامعة أم درمان ، ومؤتمر نقابات عمال القطر المصرى ، ونادى الشرقية ، ورابطة بعثات الجامعة والمعاهد ، كما أغلق نهائيا صحف الفجر الجديد والجبهة وأم درمان والعراق واليراع والضمير والوفد المصرى ، وصادر لعدة أيام جرائد المصرى والكتلة ومصر الفتاة ، ومنع الاحتفلال بيوم ١١ يوليو .

واطلق على هذه الحملة (قضية المبادى الهدامة) وألصق بالمعتقلين تهمة الشيوعية ، وكان منهم سلامة موسى والدكتور محمد مندور ومحمد زكى عبد القادر وغيرهم ، ورغم الغاء تصريح جريدة (الوفد المصرى) فان معارضة الوفد لهذه الاجراءات لم تكن قوية بالدرجة الكافية ، وضحى الوفد بجريدته مطالبا بصدور جريدة أخرى بدلا منها (صوت الأمة) .

وبقدر ما قوبلت حملة صدقى باشا بالارتياح فى الدوائر الاستعمارية ودوائر السراى .. والرجعية المصرية ، بقدر ما قوبلت بالرفض من جانب المثقفين والعمال والطلبة ، فما لبث أن أضرب عمال شركة الغزل الأهلية بالاسكندرية يوم ١٥ يوليو ، وألقيت خمس قنابل يوم ١٧ يوليو على أحد الأندية البريطانية .

وكانت هذه الحملة نقطة تحول فى أسلوب السلطة التنفيذية ، اذ جعلت تهمة (الشيوعية) سيفا مسلطا على رقاب كل الوطنيين الذين يقفون موقف المعارضة لربط مصر بعجلة الاستعمار .

نلاحظ أن الصحف التى أغلقها اسماعيل صدقى كانت صحفا يسارية ناشئة تخاطب فئات وطبقات متعددة .

(الضمير) ظهرت فى ٢٦ سبتمبر ١٩٤٥ وكان يصدرها الدكتور عبد الكريم أحمد السكرى ، وكانت تربطه صلة تنظيميه مع عدد من القيادات العمالية محمود السكرى ، وطه يوسف المدرك ، وطه سعد عثمان .

وقد قبض على هذه المجموعة فى يناير ١٩٤٦ ولم يفرج عنهم سوى فى مايو ١٩٤٦ بعد اضراب عن الطعام .

ويقول الدكتور ابراهيم عبده عن هذه الصحف فى كتاب (تطور الصحافة المصرية) :

وكانت تلك الصحف الشيوعية أو اليسارية لا تؤثر فى الكتلة الشعبية الضخمة التى تدين بالولاء لحزب الوفد ، وانما كان تأثيرها واضحا وملموسا فى بعض بيئات المتعلمين ، وكانت صحفا لا ينكر فضلها فى علاج المشاكل الاقتصادية والدفاع عن العامل والفلاح ، ومهاجمة الحكومة والملك والانجليز بعنف منطقع النظير ، وفى شجاعة دفعتها الى المطالبة بثورة تطيح بالنظام ، الأمر

الذى عرض أصحابها للمحاكمة التى أنصفها فيها القضاء ، وقد شاركها فى المطالبة باصلاح حال الكادحين بعض صحف الحكومة الوفدية كالمصرى .

خاضت هذه الصحف اليسارية عدة معارك وطنية وقومية هامة ، فقد هاجمت عباس محمود العقاد هجوما شديدا لاتهامه الماركسية بأنها عقيدة جامدة مستخدما نفس الكلمات القاسية التى كان يستخدمها ضد الوفد ، فكان يطلق على الشيوعية اسم المبادىء الهدامة .

واهتمت هذه الصحف بقضية الدعوة للوحدة العربية فعززت (الفجر الجديد) علاقتها مع صحف الأحزاب الشيوعية العربية (الاتحاد ، الغد) من فلسطين (الطريق) اللبنانية و (الرابطة) العراقية .

وبرزت القضية الفلسطينية مبكرا على صفحات هذه الصحف اليسارية ، فنشرت مجلة (الضمير) مقالا بعنوان (لن تمروا) جاء فيه كما ورد فى كتاب الدكتور رفعت السعيد (الصحافة اليسارية فى مصر) :

« لن تمروا .. هى الكلمة التى صاح بها الجمهوريون الأسبانيون عام ١٩١٦ .. يوم أن هجمت عليهم الفاشية العالمية بدباباتها واسلحتها وأموالها النازية والفاشية .. وهى الكلمة التى تصيح بها اليوم شعوب البلاد العربية فى وجه الصهيونية » .

ويمضى المقال قائلا « ان الفاشية والصهيونية من طينة واحدة .. الاستعمار والاستغلال الجشع .. فالفاشية اداة الرأسمالية المتعفنة لجأت للتدخل والارهاب لتستمر فى استغلال الشعب الكادح ، والصهيونية اداة الاستعمارية العالمية لجأت للشعوب العربية . ان الصهيونية تجد تربة صالحة لانتشار مبادئها بين اليهود فى البلاد التى ساد فيها حكم الارهاب .. فهى والفاشية مرتبطتان ارتباطا وثيقا لا يحله الا النضال ضد أسباب الاضطهاد والتعسف والدفاع عن الحريات الديمقراطية » .

إن الصهيونية لا تحل بالمرة مشكلة ستة عشر مليونا من اليهود ، بل ان المشكلة اليهودية ليست سوى جزء لا يتجزأ من نضال الشعوب كافة على اختلاف أديانها فى سبيل حريتها وديمقراطيتها » .

ويمضى المقال قائلا « ان الشعوب العربية وعلى رأسها شعب فلسطين عازمة باتحادها وتنظيم صفوفها واستنادها على الشعوب الديمقراطية الأخرى أن توقف خطر الصهيونية الداهم » .

بل ان المقال يلوم جامعة الدول العربية على تهاونها فى مجابهة الخطر الصهيونى قائلا : « واذا كانت جامعة الدول العربية لم تتخذ الموقف الحازم القاطع الذى كان يتطلب منها فى هذا الأمر ، فان الشعوب العربية ممثلة فى وفود العمال العرب فى مؤتمر نقابات العمال العالمى بباريس امكنها باتفاقها ان تشعر عمال العالم بخطر الصهيونية على الانسانية .. وأمكنها ان تمنع دخول مندوب العمال الصهيونيين فى لجنة الاتحاد التنفيذية » .

ولم يكن هذا المقال سوى مجرد بداية ، فان معظم أعداد (الضمير) زاخرة بالهجوم على الصهيونية والدفاع عن حقوق الشعب العربى الفلسطينى .

لم تفلح حملة اسماعيل صدقى فى وقف المد الثورى المتصاعد .. ولم يتراجع اليساريون الناشئون عن مواقفهم ... ولم يؤد إغلاق الصحف الى وأد صوت الجماهير .

ونشرت (صوت الأمة) التى بادر الوفد الى اصدارها بدلا من (الوفد المصرى) التى أغلقت ضمن ما أغلق اسماعيل صدقى من جرائد ومجلات ... نشرت فى ١٢ يناير ١٩٤٧ فى صدر صفحتها الأولى مقالا بعنوان (خفايا قضية الشيوعية الكبرى ... قصص لم يسبق لها مثيل فى التاريخ) اتهمت فيه صدقى بالتلفيق والتضليل والاجرام فى معاملة المقبوض عليهم .. بل انها اتهمت

حملته بأنها (حملة صليبية هتلرية) .

كان موقف صحيفة (صوت الأمة) تعبيرا عن الاتجاهات اليسارية فى صفوف الوفد ... وكان هذا الموقف موضع تقدير واهتمام واقتراب القوى اليسارية من الحزب الجماهيرى الكبير .

وحاول صدقى جاهدا ان يصل الى عقد اتفاقية مع الانجليز بعد حملته الصليبية ، وسافر فعلا الى لندن فى ١٥ اكتوبر بعد ان كان قد قدم استقالته فى ٢٨ سبتمبر ، وكلف الملك خاله شريف صبرى بتشكيل وزارة تضم الوفد اليها ، ولكنه عجز عن تحقيق ذلك لرفض الوفد واصراره على اجراء انتخابات جديدة ، وادى ذلك الى ذهاب مصطفى النحاس لتوقيع اسمه فى سجل التشريفات بمناسبة عيد الأضحى لأول مرة بعد اقالته .

وقع صدقى اتفاقية بالحروف الأولى مع بيفن ، وعاد يعلن ان الوحدة بين مصر والسودان قد تقررت نهائيا ، ولكن رئيس الوزراء البريطانى مستر اتلى كذب هذا التصريح مما أضعف من موقف صدقى ، الذى كان يعانى فى الداخل معارضة شديدة ، وخاصة من جانب الطلبة الذين عقدوا مؤتمرا يوم سفره الى لندن حضره ممثلو الطلبة الوفديين والحزب الوطنى والتنظيمات الماركسية والكتلة ورابطة الطلبة المصريين ، وقرروا الغاء معاهدة ١٩٣٦ وقطع المفاوضات فورا والالتجاء الى مجلس الأمن ، وكان صدقى قد أجل الدراسة الى ١٧ نوفمبر .

وما كادت تفتح الجامعة أبوابها حتى بدأت المظاهرات دون توقف ، تزداد انتشارا وقوة فى مختلف المدارس والمعاهد والكليات ، وتصطدم بالبوليس يوميا ويتساقط الجرحى من المتظاهرين ، وخطب مصطفى النحاس فى ذكرى عيد الجهاد (١٣ نوفمبر) مهاجما مشروع صدقى بيفن ومحاولة فرض بريطانيا معاهدة التحالف على مصر ، متهما صدقى بأنه المسئول عما يراق فى الشوارع من دماء .

وتحت هذا الضغط الشعبى ، أصدر سبعة من أعضاء وفد المفاوضة بيانا اعلنوا فيه معارضتهم للمشروع الذى انتهى اليه صدقى ، مما اجبره على حل وفد المفاوضة فى ٢٦ نوفمبر ... وتعمد الانجليز احراجه أيضا بعد أن وجدوا انه لم يستطع التعبير عن ارادة الشعب المصرى ، فجعلوا الحاكم العام للسودان يصدر تصريحات تتنافى مع بيانات اسماعيل صدقى .

وفشلت دعاية مصطفى أمين لمشروع صدقى بيفين فى مقالاته التى كتبها فى مجلة آخر ساعة تحت عنوان (أوقعها والغها) ، واضطر صدقى لتقديم استقالته يوم ٦ ديسمبر ١٩٤٦ تحت ضغط النضال الشعبى العام ، والموقف الموحد للجماهير والتنظيمات السياسية والمهنية .

وهكذا انتصرت الارادة الشعبية ، وسقط مشروع صدقى بيفن ، وسقط حكم صدقى بعد عشرة أشهر فقط .

وعاد محمود فهمى النقراشى رئيسا للوزراء يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٦ .

وتعتبر الفترة التى مضت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة النازى حتى سقوط مشروع صدقى بيفن ، من أكثر فترات النشاط السياسى خصبا وتوهجا وتأثيرا فى المجتمع .

وظهرت بعد ابتعاد صدقى مجلة (الجماهير) أسبوعية معبرة عن التنظيم الشيوعى الذى كان معروفا باسم اسكرا أو الشرارة .

وكان يشرف على المجلة شهدى عطية الشافعى الذى كان مفتشا للغة الانجليزية بالمدارس المصرية رئيسا للتحرير ، ومعه عبد المعبود الجبيلى المدرس بكلية علوم جامعة القاهرة .. وأثناء ذلك حدثت وحدة تنظيمية بين اسكرا والحركة المصرية للتحرر الوطنى عام ١٩٤٧ فيما عرف باسم (الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى ـ حدتو ـ) واستمرت (الجماهير) معبرة عن

التنظيم الجديد الموحد للشيوعية .

وكانت (الجماهير) متقدمة من الناحية الفنية والمهنية واستخدام الكاريكاتير ...

ونذكر موقفها ــ على سبيل المثال ــ من القضية الفلسطينية فنجد انها قدمت دراسة تقول أثناء مناقشة القضية الفلسطينية فى الأمم المتحدة (ان فلسطين قد بليت بنوعين من الرجعية صهيونية عدوانية ، ورجعية عربية ، وكلتا الرجعيتين حريصتان على بقاء الاستعمار) .

فترة المد الثورى التى أعقبت الحرب العالمية الثانية أحدثت ازدهارا ليس فى الصحافة اليسارية التى بدأت تطل على الجماهير بصورة مستقلة لأول مرة ولكن ... فى اتجاهات أخرى متعددة .

أبرز صحيفة ظهرت خلال هذه الفترة كانت (أخبار اليوم) التى أصدرها الشقيقان مصطفى وعلى أمين فور اقالة وزارة الوفد عام ١٩٤٤ ، فكانت فتحا جديدا مبتكرا فى دنيا الصحافة المصرية والعربية عامة ، وقد ظهرت فى شكل جريدة يومية ، ونذكر أن أول مجلة ظهرت فى هذا الحجم كانت (الصرخة) ، وحشدت عددا من أكبر كتاب مصر أمثال توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازنى وكامل الشناوى وسلامة موسى وغيرهم ... وقد انفردت أخبار اليوم بتجديدات صحفية فى مختلف المجالات جذبت لها القراء .

وانفردت (أخبار اليوم) بظاهرة خاصة هى اقدامها على نقد الوفد والتشهير به دون أن يؤثر ذلك فى توزيعها ، كما كان يحدث مع الصحف اليومية الأخرى التى كانت تستمد ثبات توزيعها من حسن صلاتها بالوفد بصفته حزب الأغلبية الشعبية .

ولم يقف طموح مصطفى وعلى أمين عند حدود مجلة (أخبار اليوم) ، بل انهما أقدما على شراء (آخر ساعة) من محمد التابعى الذى عين رئيسا لتحريرها ومازالت تصدر عن الدار حتى اليوم .

وكذلك صدرت (الأخبار) اليومية عام ١٩٥٢ ، و(الجيل) الأسبوعية التى صدرت لعدة سنوات ثم اغلقت .

وانفردت صحف (أخبار اليوم) بالقدرة على جذب القارىء بالخبر المثير والفكرة والكاريكاتير والعرض الصحفى ... وكان يغلف ذلك موقف سياسى متعارض أساسا مع الوفد واتجاهات الحركة الشعبية .

ومازال المقال الذى كتبه مصطفى أمين فى مجلة آخر ساعة يروج فيه لمشروع معاهدة صدقى بيفن تحت عنوان (أوقعها والغها) مثالا على هذا النوع من التفكير .

ومازالت الدعاية المبالغ فيها للملك بوصفه بأنه العامل الأول تعطى انطباعا لدى قراء هذه الفترة بأن صحافة أخبار اليوم كانت تؤدى عملية تجميل للسلطة .

وخلال هذه الفترة المزدهرة ، ظهرت فى نهاية ١٩٤٧ جريدة (الزمان) مسائية يصدرها ادجار باشا جلاد صاحب (الجورنال ديجبت) الفرنسية وكان رئيسها جلال الدين الحمامصى الذى خرج عن الوفد وانضم الى مكرم عبيد فى (الكتلة الوفدية) .

وأصدر مكرم عبيد جريدة باسم (الكتلة) معبرة عن حزبه الجديد وبقيت تصدر الى ما قبل الثورة بقليل .

وكان الحزب السعدى قد أصدر جريدة (الأساس) صباحية ويرأس تحريرها الأستاذ حامد جوده .

وإلى جانب هذه الصحف الحزبية اليسارية منها والتقليدية ، ظهرت صحف جديدة معبرة عن الاتجاهات الدينية .

ويقول أديب مروة فى كتاب (الصحافة العربية ـ نشأتها وتطورها) ان المجلات الدينية التى كانت تصدر فى القاهرة أسبوعيا عام ١٩٤٠ هى (الأزهر ، الشبان المسلمين ، الهداية الاسلامية ، المنار ، الاعتصام ، نور الاسلام الهادى ، التقوى ، الاسلام ، الوحدة الاسلامية ، هدى الاسلام ، المدينة المنورة ...) ويعددها لتصل الى ٣٩ مجلة بعضها كان يعبر عن الأقباط واليهود فى مصر .

ولكن الأمر لم يقتصر على هذه المجلات ذات الصبغة الدينية فقط ... بل ظهرت جريدة (الاخوان المسلمون) معبرة عن تنظيم الاخوان المسلمين الذى كان قد بدأ يلعب دورا فى الحياة السياسية المصرية .

وسرعان ما اصطدمت السلطة مع الاخوان المسلمين عندما اغتال بعض أعضائها احمد ماهر ، ثم محمود فهمى النقراشى ، ثم كان الرد على ذلك اغتيال مرشدها العام الشيخ حسن البنا أمام مبنى جمعية الشبان المسلمين ... فتوقفت الجريدة عن الصدور .

الديمقراطية وحرية الصحافة التى نعمت بها مصر خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، والتى وصل فيها المد الثورى ذروته باضراب واعتصام معظم الطوائف بما فيهم ضباط البوليس الذين اعتصموا بناديهم فى اكتوبر ١٩٤٧ وأبريل ١٩٤٨ ... هذه الفترة سرعان ما صدمت باعلان الأحكام العرفية عندما بدأت حرب فلسطين فى مايو ١٩٤٨ بعد اعلان قيام دولة اسرائيل .

وانجذبت الصحافة المصرية الى هذا الحدث القومى الكبير ... ولم تمارس

الرقابة سلطتها على الأحداث الداخلية .

ولم تكد تنتهى حرب فلسطين الى الهدنة الموقعة عام ١٩٤٩ حتى بدأت مرحلة جديدة من الحياة السياسية فى مصر ، اذ تكشف عجز الجيش عن الانتصار بعد ان اندفع الى الحرب بغير حساب .

لم يجد الملك أمامه من سبيل الا التضحية بحكومة ابراهيم عبد الهادى ، فأرسل اليه محمد حيدر وزير الحربية بعد منتصف الليل ، يأمره بتقديم استقالته قبل يوم ٢٥ يوليو ، دون ان يقابله ، بطريقة وصفها الدكتور هيكل باشا بانها كانت غير كريمة ، وهللت صحافة أخبار اليوم التى طالما ساندت ابراهيم عبد الهادى بأنها هدية الملك الى شعبه فى العيد ...

والحقيقة ان الملك قد أجبر على ذلك اجبارا بعد أن كان موعد الانتخابات قد اقترب ، وانتصار الوفد فيها مؤكد ... وبعد أن كان ارهاب حكم السعديين وأحزاب الأقلية قد بلغ الذروة دون قدرة على حل المشاكل المتراكمة ...

وكانت ظروف الهزيمة تفرض على الاستعمار البريطانى تغييرا استراتيجيا فى المنطقة بعد أن ظهرت اسرائيل الى الوجود ، وبدأت حياتها فى تعاون وثيق مع الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما الاستعمار البريطانى يواجه فى مصر أزمة شديدة .

ونشرت صحيفة الايكونوميست قبل أسبوع واحد من اجبار ابراهيم عبد الهادى على الاستقالة مقالا تعلن فيه افلاس السياسة البريطانية المعتمدة على الجامعة العربية وتقول : (ان السياسة المستقبلة الوحيدة يجب أن تعتمد على التعاون الانجلو أمريكى وان تكون نقطة البدء فى الشرق الأوسط هى التفاهم الوثيق بين الدولتين) .

كان تغيير وزارة ابراهيم عبد الهادى ضرورة تقتضيها الظروف السابقة التى استهدف الاستعمار بها محاولة الخروج من عنق الزجاجة ، بتكوين حلف عسكرى انجلو امريكى فى المنطقة يحفظ له قبضته وسيطرته .

أجرى حسين سرى باشا الانتخابات فى ٣ يناير ١٩٥٠ التى اسفرت عن فوز ساحق للوفد ، اذ حصل على ٢٢٨ مقعدا من ٣١٩ هى مجموع مقاعد مجلس النواب .

اطلقت صحيفة (المصرى) على هذا اليوم (يوم ثورة الشعب) ... وعاشت الصحافة خلال عهد حكومة الوفد فترة مجيدة من الحرية ، كما باشر الشعب دوره خلال تنظيماته المختلفة فى الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية فى قاعدة قناة السويس .

ولكن هذه الفترة المتوهجة بالنضال الشعبى والكفاح المسلح والحرية الصحفية سرعان ما تعرضت لحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، الذى أدى الى اقالة الحكومة الوفدية واعلان الأحكام العرفية .

وبدأت مرحلة مخاض ثورى جديد .

الصحافة بين حرية الديموقراطية .. وقيود الأحكام العرفية

(ما مات أحد فى حب أمة حتى أحبته)

جمال الدين الأفغانى

كانت فترة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطانى فى منطقة قناة السويس من فترات الازدهار والتفتح الديموقراطى التى تذكر لحكم الوفد .

وارتفعت أصوات المعارضة المتمثلة فى الأحزاب غير التقليدية التى لم تشارك فى الحكم مثل مصر الفتاة أو الحزب الاشتراكى الذى كان يرأسه أحمد حسين والذى كان يصدر مجلة (الاشتراكية) ، والحزب الوطنى الجديد الذى انفصل عن الحزب الوطنى برئاسة حافظ رمضان والذى قبل المشاركة فى الحكم بعد اقالة حكومة الوفد عام ١٩٤٤ ... وكان الحزب الوطنى الجديد الذى رأسه فتحى رضوان يصدر مجلة (اللواء الجديد) .

وخلال هذه الفترة كانت قد تشكلت حركة أنصار السلام بعد ميثاق ستوكهولم الذى صدر عام ١٩٤٩ ووقعه عدد من السياسيين المصريين ذوى الاتجاهات المختلفة ... الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، وحفنى باشا محمود ، وكامل باشا البندارى ، والدكتور أمين غالى عميد كلية علوم القاهرة ، وابراهيم طلعت ، ويوسف حلمى ، وسعد كامل ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وحسن فؤاد ، وابراهيم عبد الحليم وغيرهم كثيرون .

أصدر أنصار السلام الذى جمعوا بين الجيل القديم والجيل الجديد كما جمعوا بين مختلف الاتجاهات السياسية مجلة (الكاتب) الذى كان يشرف عليها يوسف حلمى وسعد كامل .

شكلت هذه المجلات اتجاها جديدا فى الحياة السياسية والحياة الصحفية المصرية ... فقد اشتدت المعارضة للملك الى حد تصوير مجلة (الاشتراكية) لبعض المساكين من الحفاة الذين قهرهم الجوع وتحتها هذه العبارات (هؤلاء رعاياك يا مولاى) ... وهاجموا فى شدة ما حاول أن يصدره فؤاد سراج الدين باشا سكرتير عام الوفد ووزير الداخلية فى ذلك الوقت من قوانين تحمى الذات الملكية ، بعد أن كانت المظاهرات فى الجامعة قد لعنت الملك .

كانت الصحافة اليومية قد تبلورت فى الأهرام ، والمصرى ، وصوت الأمة صباحية والزمان مسائية بعد أن كانت (الأساس) لسان حال الهيئة السعدية ، (والكتلة) لسان حال الكتلة الوفدية قد توقفت عن الصدور نتيجة لانصراف القراء الذين وجدوا فى أحزاب الأقلية عائقا يحول دون انطلاق الشعب لتحقيق أهدافه الوطنية والديموقراطية .

وعادت الى الظهور بعض الصحف اليسارية التى صدرت فى فترة المد الثورى الذى أعقب الحرب العالمية الثانية ، والذى انحسر بالأحكام العرفية التى فرضت مع حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وعادت الى مد مسلح ضد قوات الاحتلال البريطانى بعد عقد الهدنة عام ١٩٤٩ وعودة الوفد الى الحكم فى انتخابات كتبت عنها صحيفة المصرى عنوانا رئيسيا يوم اعلان النتيجة يقول : (يوم ثورة الشعب) .

ولكن انتصار الوفد فى انتخابات ١٩٥٠ لم يكن انتصارا له كحزب بقدر ما كان انتصارا لارادة الشعب ضد السراى وأحزاب الأقلية ، وتعبيرا عن الموجة الشعبية الجديدة المؤيدة للوفد ، المطالبة فى نفس الوقت بأهداف اجتماعية أكثر عمقا وشمولا .

ومع ذلك فان تشكيل الوزارة لم يأت معبرا عن الاتجاهات اليسارية التى بدأت تنمو داخل الوفد ... بل استنت خطة جديدة هى الإستعانة بالكفاءات

والطاقات العلمية لمواجهة مطالب الجماهير الاجتماعية .. كان فى الوزارة خمسة يحملون لقب (دكتور) لأول مرة فى تاريخ الوزارات المصرية .

وقد بدأت الوزارة الوفدية عملها باقرار الحريات العامة ، فألغت الرقابة على الصحف ورفعت الأحكام العرفية بعد تردد فى مايو ١٩٥٠ ، وسمحت بالمظاهرات داخل الجامعة حيث مزقت صورة الملك وديست بالأقدام ...

والى جانب استقرار الحريات على أسس معقولة ، واصلت الحكومة الوفدية سياستها الاجتماعية ، فأقرت مجانية التعليم الثانوى عام ١٩٥٠ بعد أن كانت قد أقرت مجانية التعليم الابتدائى عام ١٩٤٢ ، وضاعفت جميع الضرائب بما فيها الضرائب العقارية الى ١٠٠٪ ، وأعدت مشروعا لتعميم مياه الشرب فى القرى خلال خمس سنوات ، ودفعت وزارة التموين فروق أسعار بعض السلع لتكون فى مستوى محدودى الدخل ، وعمل كادر جديد للموظفين لمصلحة الصغار منهم .

كل هذه المشروعات كانت تؤثر تأثيرا بالغا على صحافة ذلك العهد فتبلورت الاتجاهات التقدمية والرجعية الى جانب المواقف الوطنية والمتهادنة ... وكتب الدكتور ابراهيم عبده فى كتابه (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ — ١٩٨١) يقول :

كما ظهرت فى عهد الحكومة الوفدية الأخيرة (١٩٥٠ — ١٩٥٢) أخطر الصحف اليسارية ، ومنها : الملايين ، والجمهور العربى ، والفجر الجديد ، وكانت حرية الصحافة فى ذلك الوقت قد بلغت عصرها الذهبى ، اذ رفعت الحكومة عن كاهل الصحف الرقابة وألغت الأحكام العرفية ، ولم تصادر صحيفة الا بحكم قضائى ، ولم تمنع صحيفة من الصدور ، وكانت تراخيص الصحف تمنح بلا عائق بالرغم من علم الحكومة بأن جميع الصحف الجديدة تمثل جبهة تعارضها وتتحداها ، وتهاجمها فى قسوة وعنف وفى شىء من التجنى أحيانا .

ويستطرد الدكتور ابراهيم عبده فى توضيح وجهة نظره فى الدور الذى لعبته هذه الصحف اليسارية فيقول :

وكانت تلك الصحف الشيوعية أو اليسارية لا تؤثر فى الكتلة الشعبية الضخمة التى تدين بالولاء لحزب الوفد ، وانما كان تأثيرها واضحا وملموسا فى بعض بيئات المتعلمين ، وكانت صحفا لا ينكر فضلها فى علاج المشاكل الاقتصادية والدفاع عن العامل والفلاح ، ومهاجمة الحكومة والملك والانجليز بعنف منقطع النظير ، وفى شجاعة دفعتها الى المطالبة بثورة تطيح بالنظام ، الأمر الذى عرض أصحابها للمحاكمة التى أنصفها فيها القضاء ، وقد شاركها فى المطالبة باصلاح حال الكادحين بعض صحف الحكومة الوفدية كالمصرى .

كانت فترة الوفد فى حكم مصر عامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ من أكثر الفترات الثرية التى تميزت بالحرية والديموقراطية ، والتوجه الوطنى ضد الاستعمار ... وناقشت الصحف فى هذه الفترة كثيرا من القضايا والمشاكل الاجتماعية والسياسية ... مثل حرب فلسطين وقضية الأسلحة الفاسدة .

وكانت مأساة حرب فلسطين قد عادت تطل على المجتمع بعد رفع الرقابة على الصحف ، وظهور عدة مقالات عن صفقات الأسلحة التى تمت خلال الحرب بوساطة بعض المقربين من السراى ، متابعة فى ذلك استقالة محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة ، والاستجواب الذى قدمه مصطفى مرعى عضو مجلس الشيوخ عن أسباب هذه الاستقالة .

ورغم ان محمود محمد محمود كان حريصا على الصمت الا أنه أفضى لمصطفى مرعى بأسباب استقالته ، وكان ذلك لأنه سجل فى تقرير الديوان بعض الملاحظات على مسلك وزارة الحربية فى موضوع الأسلحة المشتراه أثناء حرب فلسطين ، بالاضافة الى حصول كريم ثابت المستشار الصحفى للملك على مبلغ ٨٠٠٠ جنيه من ميزانية مستشفى المواساة تحت باب (دعاية) ،

وعندما أرسل التقرير الى المطبعة الأميرية ردت له البروفات .

وانتهزت الصحافة فرصة نظر الاستجواب فى آخر مايو ورفع الأحكام العرفية فشنت حملة على ما سمته (الأسلحة الفاسدة) بدأت فى روز اليوسف يوم ٦ يونيو بمقال لاحسان عبد القدوس ومقالات لحلمى سلام فى مجلة المصور . ووجد بعض الضباط الذين لمسوا بأنفسهم فساد عمليات الشراء والسمسرة الفرصة المناسبة للاتصال بالرأى العام عن طريق الصحافة .

ولذا كان النشر عن قضية الأسلحة الفاسدة مركز جاذبية شديدة لهم ، فانهالت منهم البيانات والوثائق والمعلومات على الصحفيين الذين تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع الذى ألهب مشاعر الرأى العام ، ووجد فيه الضباط مشجبا يعلقون عليه هزيمة حرب فلسطين ، ويردون به الكرامة لضباط الجيش .

ولم تجد الحكومة الوفدية بدا من تبليغ النائب العام للتحقيق رغم أن هذا يحدث تصادما مؤكدا بينها وبين الملك ، لأن الذين مستهم البيانات كانوا من رجال الحاشية مثل أنطون بوللى وأدمون صهلان ومحمد حلمى حسين ... ووصلت الاتهامات الى محاصرة محمد حيدر قائد عام القوات المسلحة باعتباره مسئولا ومتسترا على العملية من بدايتها عندما كان وزيرا للحربية ، مما اضطره الى الاستقالة ، هو والفريق عثمان المهدى رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، بناء على طلب النائب العام ابعادهما عن مناصبهما الحالية .

بدأ النائب العام محمد عزمى التحقيقات بجرأة واضحة ، بعد أن وصله أمر كتابى من وزير العدل عبد الفتاح الطويل يطلب منه القبض على أى شخص سواء فى الحكومة أو السراى للتحقيق معه ، ولذا أصدر أمرا باعتقال أدمون صهلان الذى هرب الى سراى عابدين ، ولما اتصل حسن يوسف بوزير الداخلية الذى كان موجودا فى بلطيم لم يوافق فؤاد سراج الدين على حمايته وأصر على تنفيذ أمر النائب العام ، فقام صهلان بتسليم نفسه .

ولكن النائب العام لم يواصل حملته حتى نهايتها ، بل استجاب لاغراء السراى فأفرج عن المعتقلين ، وحفظ التحقيق بالنسبة لرجال الحاشية ، ورفع الحظر عن عودة محمد حيدر وعثمان المهدى الى منصبيهما .

وهاجمت الحكومة موقف النائب العام ، وخيرته بين الاستقالة أو النقل الى منصب آخر ، فوافق على النقل ، وعين رئيسا لادارة قضايا الحكومة ... وأعلن الملك عن استيائه من موقف الحكومة عندما قرر منح جميع الوزراء نياشين أعلى عدا وزير العدل ، ورفض الوزراء قبول النياشين تضامنا مع زميلهم .

وأبرزت هذه الحادثة التناقض بين الملك وبين ضباط الجيش ، وعمقت فى نفوسهم الشعور بقدرة السراى على وضع الأمور فى طريق مسدود ... ولذا كانت قضية الأسلحة الفاسدة من أولى القضايا التى اهتمت الثورة بتحقيقها وتقديمها للمحاكمة .

بعد أن استغرقت القضية ٩٠٠٠ صفحة فى محاضر التحقيق ، ٢٣٠٠ صفحة فى جلسات المحكمة ، ١٣٠٠ صفحة أمام قاضى الاحالة ، فانها انتهت بحكم بسيط هو ١٠٠ جنيه غرامة لكل من القائمقام عبد الغفار عثمان والبكباشى حسن منصور وبراءة بقية المتهمين .

وهكذا كانت قضية الأسلحة الفاسدة ، قضية دعاية أكثر منها قضية مخالفة للقانون ... وقضية اثارة اكثر منها قضية اختلاس وسرقة ... والأقلام التى انجذبت اليها صورتها على أساس انها قضية رئيسية فى هزيمة الجيش ، متجاوزة بذلك قضايا أخرى أكثر أهمية منها وأكثر نفاذا فى التأثير على قدرة الجيش على القتال ... قضايا تمس صلب النظام الحاكم وقدرته على تعبئة طاقات الجماهير بما فيها القوات المسلحة .

لم تكن الأسلحة الفاسدة هى السبب فى هزيمة الجيش المصرى فى حرب

فلسطين ... ولكنها كانت بقعة سوداء ضمن بقع كثيرة لطخت وجه النظام وأساءت الى قدرة الجيش ، وأثارت خلال فترة النشر والتحقيق مشاعر الجماهير ضد الملك ورجال الحاشية ، لأنهم ربطوا بين السرقات وهزيمة الجيش واعتقال الوطنيين الأحرار .

لعبت الصحافة دورا بارزا مثيرا فى هذه القضية ، ولم تكن هذه هى القضية الوحيدة التى لعبت فيها الصحافة دورا بارزا ومثيرا ... كانت هناك قضية مشروع القانون الذى تقدم به النائب الوفدى اسطفان باسيلى لحماية الملك من هجمات النقد والمعارضة ... فقد تكاتفت الصحافة على اسقاط القانون حتى أجبر اسطفان باسيلى على سحبه .

كما لعبت الصحافة المصرية عامة دورا هاما فى القضية الوطنية تمثل فى هذا الاجماع الرائع الذى التقت عليه صحف الحكومة الوفدية والمعارضة مطالبة بالغاء المعاهدة المصرية البريطانية التى وقعتها جبهة وطنية رأسها مصطفى النحاس عام ١٩٣٦ ، وأعلن يومها أنها معاهدة الشرف والاستقلال .

لعبت الصحافة المصرية دورا ضاغطا لالغاء المعاهدة ، الأمر الذى دفع مصطفى النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ لجمع مجلسى البرلمان (النواب والشيوخ على هيئة مؤتمر) ، وألقى النحاس باشا رئيس الوزراء بيانا مستفيضا عن سياسة الحكومة بشأن معاهدة ١٩٣٦ ، ثم أعلن الغاء هذه المعاهدة ، كما ألغى اتفاقتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو ١٨٩٩ الخاصتين بادارة السودان ، ثم نادى بملك مصر ملكا على مصر والسودان ، وختم النحاس بيانه بهذه الكلمات : (من أجل مصر أبرمت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بالغائها) .

وبدأ الكفاح المسلح والتهبت الصحف جميعا بالمقالات النارية ... وتصاعد الكفاح المسلح بسرعة مذهلة .

وفى ٨ ديسمبر ١٩٥١ طلب الانجليز اخلاء حى (كفر أحمد عبده)

بدعوى تحصن الفدائيين به ، واجتمع مجلس الوزراء وقرر رفض الطلب ، فحشد الانجليز آلاف الجنود ودبابات ومصفحات لم يكن ممكنا لقوة بوليس لا يزيد عددها على ٤٠٠ أن تقاوم ، فانسحبت وهدم الانجليز كفر أحمد عبده ... وردت الحكومة على ذلك باستدعاء عبد الفتاح عمرو السفير المصرى بلندن فعينه الملك مستشارا له للسياسة الخارجية ، وهو المعروف بميوله الانجليزية ، واستولت على نادى الجزيرة الذى أنشأه البريطانيون فور احتلالهم مصر عام ١٨٨٢ وقصروا عضويته على العائلات البريطانية ولا يدخله المصريون الا بعد المرور على مجهر بريطانى دقيق ، وأباحت للشعب حمل السلاح .

كانت هذه الأحداث المتكررة تهيج مشاعر الشعب فى مصر فتنطلق المظاهرات ويحدث من بعض أفرادها اعتداء على الممتلكات ... وأدرك بعض الثوريين ان ذلك يمكن ان يكون ثغرة يتسرب منها المستعمرون ، فكتب سلامة موسى فى صوت الأمة (٢٥ أكتوبر ١٩٥١) يذكر بأن ما حدث من فساد للنظام أمر يخيف الأجانب وان بعض الشعارات كانت سيئة مما يعطى للأعداء فرصة الاندساس فيها لافسادها .. وخاطب النحاس باشا الشعب طالبا منه الهدوء .

وأصدر رؤساء تحرير الصحف بيانا يطالب بالعدول عن المظاهرات حتى لا يستغلها الانجليز ، وقد وقع البيان معظم رؤساء التحرير بما فيهم رؤساء تحرير (الكاتب) و (الاشتراكية) ، ورفض أبو الخير نجيب رئيس تحرير مجلة (الجمهور المصرى) التوقيع لأن مجلته كانت من مجلات الاثارة غير الواعية .

ولكن استشهاد المكافحين فى القنال جعل وقف المظاهرات أمرا صعبا ، مما اضطر الحكومة عقب اعلان ٢٣ أكتوبر يوما للحداد الى اصدار بيان بأن عناصر غير بريئة اندست فى المظاهرات ، وقررت منع المظاهرات منعا باتا مع التهديد باستخدام العنف .

ومع ذلك لم تتوقف المظاهرات تماما .. ولم تستخدم الحكومة العنف تماما حتى يوم ١٤ نوفمبر حيث صرحت الحكومة بخروج أكبر مظاهرة شهدتها مصر تحت شعار (الصمت . الحداد . النظام) ، وسار فى طليعتها مصطفى النحاس وبجواره على ماهر ورجال الحكومة ، وشيخ الأزهر والبطريرك والحاخام ورجال الدين والقضاء والجامعة والمهنيون وبعض العسكريين ، كما اشتركت وفود من الدول العربية والسودان .. وكانت كتائب التحرير تحرس المظاهرة فلم يحدث حادث واحد ، فى الوقت الذى قدر فيه عدد المتظاهرين بمليون متظاهر عدا المتفرجين على الأرصفة ، حتى انها وقد بدأت من ميدان الاسماعيلية (التحرير) لم يعرف لها أول من آخر ، وعم الصمت المظاهرة الكبيرة ، وتساقطت على المتظاهرين المنشورات الثورية ، وارتفعت لافتات قدرت بعشرة آلاف لافتة كتب عليها (يسقط الدفاع المشترك) ، (الوساطة الأمريكية خدعة) ، (يسقط الاستعمار) ، (الموت للخونة) .. الى غير ذلك من الشعارات الثورية .

ولم تكن هذه المظاهرة التاريخية هى خاتمة المظاهرات .. فقد كانت حوادث القنال تجد انعكاسا وردود فعل سريعة فى القاهرة لا تجد لها وسيلة للتعبير الا التظاهر رغم حظر ذلك ، حيث كانت المظاهرات تخرج بصفة تلقائية شعبية دون قيادة منظمة قادرة .

وهكذا تصاعد الموقف الى الحد الذى جعل بعض الصحف تصدر وكأنها منشورات ثورية .

ودون دخول فى التفاصيل التاريخية لما حدث فى هذه الفترة الباهرة نذكر فقط ان .. الاستفزازات البريطانية قد وصلت الذروة ليلة الجمعة ٢٥ يناير ، عندما حاصر آلاف الجنود البريطانيين ومعهم المصفحات والدبابات مبنى محافظة الاسماعيلية ، وأرسل الجنرال اكسهام القائد البريطانى بالمنطقة انذارا

لقوات البوليس المصرى بمحافظة الاسماعيلية بتسليم اسلحتهم والخروج من المحافظة والثكنات والرحيل عن منطقة القناة كلها .

وكان عدد جنود بلوكات النظام فى الاسماعيلية ألف جندى مع كل منهم ألف طلقة .. وبدأت المعركة باطلاق قذائف المدفعية والدبابات على مبنى المحافظة ، وقاوم البوليس المصرى مقاومة باسلة ، وأطلق مليون طلقة رصاص ، وانتهت المعركة بمقتل ٧٠ عسكريا مصريا ، ٤٠ عسكريا بريطانيا .

ودخل الجنرال اكسهام مبنى المحافظة وصافح قائد القوة المصرية قائلا له « أهنئك وأهنىء جنودك على الروح التى قاتلوا بها ، ولذا فلن أعاملكم كأسرى حرب ، ولن تخرجوا من هنا رافعى الأيدى » .

وفى اليوم التالى خرجت مظاهرة من جنوب بلوكات النظام ، ووقع حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وأعلنت فى نفس الليلة الأحكام العرفية ، وأقيلت حكومة الوفد مساء يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ .

واقترن حريق القاهرة واقالة الحكومة الوفدية بعودة الأحكام العرفية التى قيدت الصحافة وكبلتها بقيود الرقابة من جديد .

وخلال هذه الفترة المظلمة المشحونة بالغضب ، حيث فتحت المعتقلات من جديد ، وطورد الفدائيون ، وحددت اقامة سكرتير عام الوفد ، وأخذت الوزارات تتشكل بمعدل سريع .

خلال هذه الفترة ظهرت جريدة (الأخبار) النسخة اليومية من أخبار اليوم ... أصدرها مصطفى وعلى أمين بشكل صحفى متميز له طابع مختلف عن طابع الجرائد التى كانت تصدر فى ذلك الوقت ... الخبر السريع القصير ، الاعتماد على التحقيقات أكثر من المقالات ، ظهور اليوميات .

الصحافة خلال الشهور التى أعقبت حريق القاهرة ، وسبقت حركة

الجيش ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ... كانت تعيش حالة من عدم الاستقرار وتتوقع أن يحمل الغد لمصر أمرا جديدا .. وكثرت التوقعات فى الصحف الغربية والصحف المصرية .

نشر الكاتب الأمريكى ستيوارت السوب مقالا فى صحيفة (شيكاغو صن تايمز) يقول فيه : (اذا كانت بريطانيا قد استطاعت فيما مضى أن تحافظ على سيادتها على مصر بخلق الباشوات وجعلهم أصحاب النفوذ ، وبرشوتهم بعد ذلك ليكونوا أداة تسهيل مصالح بريطانيا الاستعمارية فان هذه الطريقة لم تعد عملية ولا مجدية اليوم ، ان الشعب الفقير قد أخذ يستيقظ ويشعر بالضيق الفاحش اللاحق به) ثم أنهى مقاله بقوله (ان الحديث عن انعاش الديموقراطية فى بلد كمصر يعيش فيه أغلبية الشعب عيشة أحط من عيشة الحيوانات ، هو لغو فارغ ، إن مصر لا تحتاج الى ديموقراطية بل تحتاج الى رجل فرد ، الى رجل ككمال أتاتورك ليقوم بالاصلاحات الضرورية اللازمة للبلاد ، لكن مشكلة مصر فى كيفية العثور على الديكتاتور ، فليس بين رجالها من لديه المؤهلات اللازمة للديكتاتور) .

وكتب احسان عبد القدوس مقالا بعنوان (ان مصر فى حاجة الى ديكتاتور .. فهل هو على ماهر ؟) تحمس فيه للدفاع عنه وقال انه معروف عنه انه يعتد برأيه الى حد لا يسمح معه للوزراء بالتفكير ثم قال (ومصر تقبل معه أن يعتد برأيه الى حد أن يصبح ديكتاتورا للشعب لا على الشعب ، ديكتاتوراً للحرية لا على الحرية ، ديكتاتورا يدفعها الى الأمام ولا يشدها الى الوراء) .

وفى نفس الوقت تقريبا ظهرت عدة مقالات كتبها جوزيف السوب (من نادى الجزيرة بالقاهرة) قال فيها ان فاروق قد فقد أهليته ، وأن الوفد حزب لا يمكن الاعتماد عليه ، وأن الأمل الوحيد فى الجيش .. وقد أثارت هذه المقالات

التى نشرت فى أمريكا اهتمام المبعوثين المصريين هناك ، ودفعت الدكتور ابراهيم سعد الدين عضو الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي ومسئول معهد الدراسات الاشتراكية فيما بعد الى كتابة مقال لمجلة (الكاتب) دون توقيع ، تحدث فيه عن احتمال وقوع انقلاب عسكرى .

وكانت صحف دار أخبار اليوم هى المنبر الذى تنطلق منه الدعاية للسياسة الأمريكية ، فهى تمدح السراى والملك ، وتهاجم الوفد وتحاول التشهير به ، ثم تنقلب الى غمز السراى عندما تتبلور السياسة الأمريكية وتفقد الثقة فى قدرة الملك على الاصلاح . وقد أوضح موسى صبرى ذلك فى كتابه ملك وأربع وزارات بقوله : (اتخذت موقفا معاديا للشيوعية فى وضوح وقوة ونادت بالاصلاح ، وكان منطقها فى محاربة الانجليز ، خذ منهم ما تستطيع ثم حارب من جديد ، ولعل صحافة أخبار اليوم كانت تمثل حيرة الشباب فى البحث عن بطل ، وعبرت فى كثير من مقالاتها وتحقيقاتها عن هذا الأمل الذى تجمع حوله الناس) .

وفى غمرة البحث الأمريكى وراء خفايا الحياة السياسية فى مصر ، ومحاولة معرفة (البطل) الذى تحدثت عنه صحف (أخبار اليوم) ، وقف جهاز اكتشافهم الحساس عند ظاهرة ، لم تكن وقتها ذات أثر كبير فى حياة الجماهير اليومية ، ولكنها أظهرت بادرة مثيرة فى أخطر جهاز منظم فى مصر .. وهى انتخابات نادى ضباط الجيش التى دفعت اسم محمد نجيب الى الضوء .

وخلال الأيام التى سبقت حركة الجيش كانت الصحف تنشر عناوين رئيسية أبعد ما تكون عن معرفة ما كان يختمر فى نفوس الضباط الأحرار .

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب دراسة لقضية الصحافة فى مصر منذ الحملة الفرنسية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من وجهة نظر سياسية ومهنية .

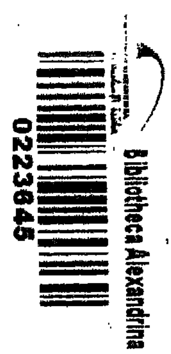
أما مؤلفه الأستاذ أحمد حمروش أحد الضباط الأحرار الذين عملوا بالصحافة قبل ثورة ٢٣ يوليو .. وقد نشرت له مقالات عديدة فى جريدة الأهرام و مجلة الفصول .

وعندما قامت الثورة عام ١٩٥٢ اختارته ليصدر ويرأس تحرير مجلة التحرير وهى أول مجلة تصدر عن الثورة خلال سبتمبر ١٩٥٢ و توالت بعد ذلك رئاسته لتحرير مجلات أخرى فأصدر :

فى عام ١٩٥٥ مجلة الهدف (شهرية) عن إدارة التعبئة

و فى عام ١٩٦١ مجلة الكاتب .

و فى عام ١٩٦٤ مجلة روز اليوسف .



دار المستقبل

٤١ شارع بيروت . مصر الجديده
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــــرة